أسك زاد

جليس الشر

رواية

الكتاب : جليس الشر
المؤلف : أيمن العايدي
تصميم الغلاف : محمد مجدي
مراجعة لغوية : إسلام علي
رقم الإيداع : ٢٣٠٥٩\٢٠١٥
الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٦٤٩٥-٢٩-٦
***
دار الميدان للنشر و التوزيع
جمهورية مصر العربية
هاتف 01224245429 / 0552311408
Website: www.daralmidan.com
E-mail: almidan@daralmidan.com

رواية / جليس الشر

أيمن العايدي

The Evil's Sitter

إهداء

إلى العالم المخيف الذي لم أدرك بعد إن كان يسكن بداخلي أم أسكن بداخله..!

العالم المرعب الذي تخطى حدود وقواعد المنطق..!

العالم المكنون الذي فتح لي أبوابه على مصراعيها لأستلهم منه ما أريد..!

إهداء إلى خيالي...،

المؤلــف

تنويه هام:

في حالة حدوث أي تشابه بين ما تقرأه في الرواية وبين ما اطلعت عليه أو عايشته في الواقع، سواء من أحداث أو شخصيات أو أسماء أو معلومات، فهو من قبيل الصُدفة البحتة وغير مقصود به نية التشابه، وتُخلى مسئولية المؤلف عن هذا التشابه كاملةً!

من قوانين العالم المكنون:

أنت تقرأ.. إذن أنت مرسال!

فلا عليك أن تتدخل في أقدارهم

وإلا عوقبت وصرت مُدوّنًا لهم!!!

في عالم يشبه واقعنا وطبيعتنا وزماننا:

أضاء شاب خمري اللون، يشير وجهه إلى العشرينيات من عمره، بضوء كشافه المتقطع ممسكًا بِه بيدين مشققتين، وأداره حوله باحثًا عن شيء ما، عندما كرر العجوز الذي يجلس بجواره بصوته المبحوح: "مش سألتك ياد يا (عزّت) انت بتعمل إيه!؟"

نفخ (عزت) بهدوء منهمكًا في بحثه: "وربنا قلتلك بدوّر على الطُعْم! اصبر بس يا عم (صفوت) ماتستعجلش على رزقك!؟"

ابتسم (صفوت) ثم رد: "طب خلّص بأة عاوز أطْلع بسمكة مربربة كده... أنا زهقت من الضفادع دي"، ثم صمت لحظة ليستمع إلى نقيقهم سائلًا: "ولا!.. هو ده صوتها ولا هي بتتجوّز!؟ "

نظر (عزت) ناحية (العجوز) مبتسمًا وهو يقول في سره: "حاشر نفسه في كل حاجة... وناوي يقرفني.. كان لازم أرد عليه السلام عشان ييجي يعطّلْنى ويقولي عاوز أجرب وأصطاد!!!!!"

ثم لمح بيمينه تحت أشعة الضوء، فوجد حقيبته البلاستيك السوداء وقد انزلقت عن مكانها لتختفي، فاتجه ناحيتها باحثا عن كِيس شفاف بداخلها، متعاملًا مع عقدة الأولى مُصدرًا صوتًا مُزعجًا امتزج بصوت كائنات الليل وحفيف الأشجار... ابتسم (العجوز) على إثر هذا الصوت قائلًا: "شكلك لقيته"

(عزت) وهو يُخرِج الطُعْم عائدًا إلى (العجوز صفوت): "آه يا عم (صفوت).. هَشبَطه بس في السِن بتاع الصنّارة وهديهالك

تعيش بأة.. بس هي سمكة واحدة تصطادها وتسيبني بأة عشان أشوف شغلي".. ثم وضع الكشاف بجوارهما ممسكًا بدودة كبيرة الحجم، مخرجا إياها من كيس الطُعم لتتلوى تحت خيوط الضوء بجسدها الأملس الذي يلمع جراء البلل، ثم غَرز فيها طرف الخطاف لتسكن حركتها شيئا فشيئا، ثم ثبت عصا الصنارة تحت حجر بناء أبيض اللون مُهيّأ بتجويف من داخله، مناولًا الخيط للعجوز، الذي مد يديه متحسسًا فور اقتراب (عزت) ليقبض عليه، ثم قال بأسى بالغ: "شكرا يا (عزت) يا ابني.. كان نفسي أعمل كده قبل ما نور عيني يروح من العياط على ابني الوحيد.. من بعد (حادثة المولد) اللي ضيعته مني، كنت أنا وهو أساطير في الرقص واللف بالتنورة"، ثم أطرق برأسه و بانت دموعه وهى تنبثق مُسالة على خدّيه رغم الظلام.

فرد (عزت) متأثرًا له محاولًا تخفيف ألمه: "تحت أمرك يا عم (صفوت)، ومعلش قدرك كده.. اعتبرني ابنك برضه"، ثم أمسك بذراعه ملقيا بالخيط في مياه الترعة، مكملًا: "بص بأة.. الموضوع بسيط يا عم (صفوت).. استنى بأة وخلّي إيدك لامسة الخيط.. أول ما تحس بيه بيتهز أو بيشد كده اعرف إن فيه سمكة رشقت وناديني.. أنا جنبك أهو بجهّز الشبكة عشان أثبتها في الترعة"

أومأ (الرجل) مبتسمًا، كأن الرد أنساه المُر الذي عاشه سابقًا، فاتحًا عينيه البيضاوتين ينظر بهما للسماء تحت ضوء الكشاف.

ثم اتجه (عزت) إلى ربطة معقدة بشبكة الصيد خاصته، وبدأ يحلّها...

وفجأة، وفي أقل من خمس دقائق، أحس (العجوز) بخيطه وقد شدّ...

صاح (صفوت) في حماس: "الحق ياد يا (عزت) شكلها سمكة!"

أسرع (عزت)، غير متوقع قِصَر الفترة، وليكمل عمله بعدها في سكون تام، ثم صاح ممسكًا بالخيط من يد (صفوت) في جديّة: "الله ينور! شد معايا بأة"

فشد (العجوز) ساخراَ: "تقيلة شوية شكلها سمينة.. ولّا أنا اللي عجّزْت!؟"

(عزت) محتفظًا بجديته: "ماهي بتحاول تُهرَب.. اجمد شوية يا عم الحاج"

شد (العجوز صفوت) بقوة، وتحت الظلام أخرجها ساحبَا إيّاها إليه.

تنهد (عزت)، ثم اتجه عائدًا نحو الكشّاف ممسكًا به، وسار إلى (العجوز) لمشاهدة ما اصطاده.

وبمجرد ما سقط الضوء المتذبذب على ما جاب (عم صفوت)، سقط (عزت) مفزوعًا من هول المشهد، صارخًا بكل ما أوتي من قوة.

في تلك اللحظة برقت عينا (العجوز) وكأنه رُد إليه بصره، إذ تحسس تلك الرأس التي ذاب جلدها وأُنتهِكَت طبقاته من أثر المياه، وقد غرز إصبعه غير متعمد في محجر عينها اللين

والمجوف، وباليد الأخرى أحس بجزءٍ من الكتف وقد نُهِش بقوة في بعض المواضع، ينزف دماء لزجة ممتزجة ببعض الأعشاب، ليدرك أنها ليست بصيدة.

تنبعث منها تلك الرائحة القذرة، النتنة.

تأمل (عزت) الرأس من بعيد، وقد تقيحت في مناطق كثيرة منها جعلت للثواني قيمة غير محسوبة؛ إذ أشاح ببصره، وسرعان ما أفرغ ما تبقى ببطنه من قوت يومه حتى فرغت، ثم تنفس بصعوبة بالغة.

أما (العجوز) فارتعش بعنف، قبل أن تصطك أسنانه ويجز عليها محاولًا منع الوكزة التي أحاطت بالدائرة المحيطة بقلبه واضعًا يديه، مطلقًا صرخة رعب هائلة هاجت عليها زواحف الليل وماجت، تلتها شهقة أخيرة ساقطًا بها صريعًا في الحال، وعيناه تبرقان لتدلا على رعب هائل... ومازال صدى الصرخة يدوي في أنحاء القرية المتاخمة لهما، ليهرع الأهالي إلى اتجاه حلقة الصيادين المطلة على الترعة.

تابع (عزت) (العجوز) الصريع وهو يِسقط الرأس لتتدحرج، ليسرع ناحيتها عنكبوت متوسط الحجم، دالفا بفتحة أنفها، وقد أيقن أن بداخلها ملاذه من حالة الذعر التي أصابت من حوله؛ فترجل (عزت) متراجعًا للوراء، ليختل توازنه ويسقط، لتحتضنه شجرة ذات فرع مدبب، مارًا عبر رأسه، ليلفظ (عزت) أنفاسه الأخيرة في الحال، في مشهد دموي مأساوي.

*****

(١)

رُبّ صدفة خير من ألف ميعاد!

تصبب عرق (سعيد) بغزارة، يتساقط لعابه كصنبور معطوب تآكلت جلدته، لا يحرك ساكنًا لكن عينيه تدوران في فزع وذعر؛ لتتفحصا الظلام الحالك من حوله، والذي تتوسطه تلك الجثة المترنحة الظاهرة في اتجاهه، لفتاه صغيرة السن يصدر عنها أنين متقطع ممتزج بصوت الحكة الصادر من مشيتها، تتدلى رأسها جهة اليمين، فكاها متخاصمان وكلما اقتربت أدرك استحالة عودتهما أحبابًا مرة أخري. لمح ذراعيها المحترقين والممتدين ناحيته، ذوي العظام المتهتكة، يحملان تحت طياتهما طبقات من الجلد المتعفن شديدة السواد.

وباقترابها أكثر ازدادت رائحتها الكريهة، التي بمجرد توغلها داخل مجسّات أنفه لتستشعرها، ازداد تدفق الأدرينالين داخل جَسده المرتعش، ليغرق في بحر من العرق، وليشعر أنه استقر في قاعه بلا عودة.

حتى وصلت إليه الفتاة، لتقترب بوجهها منه بطريقة رهيبة جدا، وتميل به أكثر ناحية اليمين حتى كادت أن تنخلع رأسها!!

*****

استيقظ (سعيد) من كابوسه غارقًا في عَرقه على الأريكة، وقد طبع بجسده عليها كالعجين، ناظرا إلى شقته مبعثرة الأرجاء،

والتي ورثها عن والديه. تمالك بجسده وصولًا إلى سرسوب المياه بصنبور دورة المياه، ليرتشف منه فاتحًا إياها، ثم تملكه حزنٌ دفينٌ؛ فكيف هي الحياة بدون الأب والأم في هذا المكان الموحش!؟ يفكر بأنها حياة باهتة بائسة تخلو من البركة والدعاء مليئة بعالم من الكوابيس، لذا عزم القرار أن يبيع تلك الشقة غير متفائل بها، والكائنة بذلك الحي النائي عن مظاهر وأنشطة الحياة، ليستبدلها بأصغر منها؛ لإحساسه بالوحدة؛ ولعدم وجود فرص عمل في تلك الآونة واحتياجه للمال؛ فبدأ يتحدث لصورتهما يشكو لهما همه كالمجنون، يناجيهما يذرف بالدموع لإحساسه بالوحدة داخل وخارج شقته!

مر عليه شريط حياته، لا يتذكر سوى والده الذي فارق الحياة، ووفاة والدته حزنًا عليه، متذكرًا أنهما لم ينتظراه لوداعه، ومنها تدهورت حالة (سعيد) النفسية من بعدهما، ودخل في حالة اكتئاب شديدة ووحدة لا تُطاق؛ فقد ذهب كل جميل في حياته، ولكنه شفي منها، و تطلع للبحث عن وظيفة أيًا كانت من الوظائف المباشرة؛ ليؤتى بها قوت يومه، خاصةً بعد بلوغه سن الثلاثين، وكم من محاولة باءت فشلًا ذريعًا، متنقلًا من واحدة لأخري!

قطع هذا الشريط زمجرة الجوع، التي يدركها نتيجة الألم الذي يعتصر بطنه، والذي زاده همًا وتذكر أنه يتناول وجبتين خفيفتين في اليوم، بعد أن أدرك أن المال الذي بحوزته بدأ في الزوال دون استثماره لافتقاده الخبرة تمامًا، وما تبقى له هي تلك الشقة التي احتلتها الفوضى.

فأسرع متوجهًا إلى مطعمه المفضل للفلافل، وهو يفكر بين الحين والآخر في حاله، وينقم على حياته الرتيبة، حتى أدرك أنه مر مبتعدا عن المطعم دون توقف بمسافة قصيرة، وقد شتّتته الأفكار السوداوية بحياته، لذا رجع مسرعًا وألقى التحية على (العم زيزو)، والذي أصابته شيخوخته في ذاكرته.

رد (عم زيزو): "إزيّك يا (نبيل) يا ابني.. اتفضل"

رغم حزن (سعيد) ابتسم قائلا: "يا عم زيزو أنا بقالي زمن بجيلك وكل شوية تتلخبط في اسمي! أنا (سعيد) مش (نبيل).. نبيل ده صاحبي الأنتيم"

(عم زيزو) كمن يتذكر مجاملًا: "(سعيد)! طيب ربنا يزيدك سعادة يا ابني كمان وكمان"

رفع (سعيد) كفيه باسطًا كليهما في الهواء، ناظرا لأعلى مبتسما من بساطة (عم زيزو) داعيا: "يا رب يا (عم زيزو)"، ثم أنزل يديه وأكمل: "ممكن بأة ٢ فول وواحد طعمية، بس من غير سلطة.. بسرعة وحياتك عشان بطني بتصوصو"

(العم زيزو) وقد بدأ في إعداد الساندويتشات: "حالا يا حبيبي.. ممكن بس تناولني كَبشة الجرايد اللي عندك دي عشان ألفْ بيها طلبك!؟"

جال (سعيد) بعينيه باحثًا عنها، حتى أشار (العم زيزو) له بمكانها، فأمسك بها وكادت أن تنزلق منه.

(العم زيزو) متابعًا (سعيد): "حاااسب!!"

ضحك (سعيد) وهو يناوله الجرائد: "مانا هحاسب غصبن عني أومال هاخد الأكل وأجري!؟"

تناول (العم زيزو) الجرائد من (سعِيد) مبتسمًا، متعجبًا من حاله اليوم كغير عادته، ليس اجتماعيًا وفي حالة انطوائية دائمة، يراه فقط عندما يدق الجوع باب معدته.

*****

ابتاع (سعيد) وجبة الإفطار عائدًا بها على الفور إلى منزله. لم يشغل له بالًا غير إطفاء نار جوعه الهائجة، لذا أسرع الخُطى نحو باب شقته، وبمجرد دخوله فتح اللفة متلهفًا، وبدأ ينهم ما فيها في شراهة، وكعادته يُسلّي نفسه بقراءة مقالات الجريدة التي لُفّ بها طعامه، وقد امتصت زيت (عم زيزو) المكرر. لاحظ أنها جريدة بلا اسم ولا معالم، يبدو عليها القدامة لكنها مترخة بتاريخ قريب!! سقطت عيناه على إعلان غريب وبدأ يتأمله جيدا، والذي ملأ جزءًا كبيرًا من الصفحة لكبر خطه، وقد اعتلاه بصيص من الأمل. ابتلع قضمته الأخيرة في عجالة، ثم قرأ لنفسه بصوت عال:

(نبحث عن جليس لطفلة تبلغ من العمر ثماني سنوات - لا يُشترط الخبرة - غير فضولي - الراتب مجزي وسيتم الاتفاق عليه، فقط رِنْ على الرقم التالي: "------------"، وسنوافيك نحن بالاتصال

* ملحوظة: الاتصال يعني عدم الجدية والالتزام من البداية،

وبالتالي عدم القبول بالوظيفة)

ثم فكر: "لا يشترط خبرة!! ماشي.. مايكونشِ فضولي!! وماله أسيب فضولي في البيت وأقفل عليه بالضبة والمفتاح طالما شغلانة ومرتبها حلو يعنى هعمل بيه إيه!؟ المهم الفلوس دلوقت.. أنا لازم أكلم نبيل" ثم توقف لحظة: "أرن الأول على الرقم"

وسرعان ما أخرج هاتفه المستعمل وقت ابتياعه، سيئ المنظر ذا الموديل المتوسط والخطين، وهو ينظر له باشمئزاز قائلًا: "جه الوقت اللي أغيرك بأة"

ثم قام بالاتصال كأول خطوة

"الهاتف الذي طلبته غير متاح...."

أغلق وبدت خيبة الأمل تتسرب إلى وجهه عندما أحس بضياع الفرصة، لذا صاح بعصبية مطلقًا فتات الطعام الباقي من فمه كالقذائف: "ماهو أكيد ده هزار!! جورنال غريب من غير اسم حتّى، أكيد اشتغالة... إزاي يضحكوا على ناس بتدور على شغل ومحتاجاه عشان أكل العيش!؟ دي حتى غريبة حكاية جليس للأطفال دي.. اللي أعرفه إنهم بيبقوا ستات.."

ثم نفخ من الغيظ، ولاحظ أنه أنهى طعامه دون استمتاع، فتنهد مكملًا: "حسبي الله ونعم الوكيل.. الناس دي هتروح من ربنا فــ......!!!"

قاطعه صوت أزيز هاتفه، فإذا به رسالة تفيد بأن الرقم متاح الآن.

نشط الأمل بداخله، وهم بتكرار الاتصال برنة واحدة فقط، ماحيًا من ذاكرته ما صاح به من ثانيتين، ثم تمتم في أمل: "هيَتصل بيا أكيد...."

ثم أرسل رسالة لـ(نبيل)، وانتظر.....

*****

بعد فترة:

لاحظ (نبيل)، ذو الشارب المشوه وفروة الرأس الغريبة، توتر وقلق صديقه سعيد كلما نظر لساعته ثم لهاتفه، ثم قال بصوته الأجش: "يعني انت بتصدق الكلام ده يا سعيد!؟؟ أكيد اشتغالة!" ثم قام من مكانه.

التفت (سعيد) محبطًا إلى (نبيل)، الذي قام واتجه نحو النافذة ليتلصص منها من وراء الستار خفية، ثم عنّفه: "يا عم إيه الإحباط ده!؟ وبعدين مش قلتلك مليون مرة تبعد عن الشباك ده!؟ انت ناوي تحرجني معاها!"

تحدث (نبيل) غير عابئ بتوبيخ (سعيد)، وهو يمط على شفتيه مطرقعًا: "أوبااا! اهدا بأة كده وتعالى بص معايا على (هدايا).. لابسة قميص جديد عن اللي فاتوا ووقفالك في البلكونة.. البت دي مصممة تنسى المرحوم جوزها! الكَبت وِحشْ برضه،

وبعدين من دون رجالة الحي الضايع ده، مَلَقِتْش غيرك يا (سعيد) يا ابن المحظو......"

قاطعه صوت محمول (سعيد)، الذى تهللت أساريره وتجدد الأمل داخله للمرة الثانية، فانتفض قائلا: "ده الرقم.. استنى بأة أرد"

تأمل (نبيل) المشهد بضيق وغيرة، ثم تمتم بصوت مسموع من وراء قلبه: "شكلها هتلعب معاك يا صاحبي" ثم أردف بضيق بصوت غير مسموع: "ابن محظوظة!".

*****

انتقل (سعيد) إلى غُرفة مظلمة مجاورة مغلقًا بابها خلفه، ورد بصوت واهن: "ألوووو"

أجابه (صوت غليظ): "أيوة مين!؟"

(سعيد): "سعيد القَمّاش، حضرتك مِنَزِّل إعلان طالبين فيه جليس أطفال و...

قاطعه (الصوت): "أيوة أيوة... ممكن تيجي تستلم الشغل النهارده لو عاوز يا أستاذ سعيد"

تأمل (سعيد) الوقت المتأخر مندهشًا: "الساعة دلوقت تسعة، حضرتك متأكد!!!؟"

(الصوت): "بلاش أسئلة كتير لو سمحت، ولما تيجي هفهّمَك..

ركز في العنوان عشان مش هقوله تانى: ...."

استمع (سعيد) بتركيز شديد للعنوان رغم فرحته العارمة التي تحاول تشتيت انتباهه، وما زاده فرحةً أن العنوان يبعد عنه بثلث ساعة في المركز التابعة له قريته، وقد ظن أنه بعيد.

ثم قاطعه صوت (انقطاع) الاتصال...

التفت وراءه، فإذا بشخص ماثل ينظر له ببرود، وعندما اعتادت عيناه على الرؤية اتضح أنه (نبيل)، الذي سأل بخبث: "هاه إيه الأخبار؟"

(سعيد): "ما ا نت سمعت كل حاجة انت هتحوّر!؟"

(نبيل) ونظرتيْ البرود والخبث لا تفارقانه: "هتروح إزاى بأة؟ مين هيوصّلك!؟"

نظر (سعيد) بثقة قائلًا: "مين اللي هيوصّلني برضه!؟؟"

ابتسم (نبيل): "ماشي"

أكمل (سعيد): "وبعدين بطّل حركاتك الغريبة دي اللي بتعملها كل شوية... يا ريت يعني"

(نبيل) وقد اتسعت ابتسامته غير المطمْئنة: "بمناسبة (غريبة) دي، بص بس الساعة كام!!؟ إزاي تيجي تستلم شغل بالليل!؟ مش غريبة دي بأة!؟"

فكر (سعيد) ونظر بجديّة: "عندك حق.. حاسس إن ده مقلب..

بس أدينا مع بعض هنشوف.. وانت عارف يا صاحبي أنا محتاج أي شغلانة.. انت عارف إنه قالي في العنوان إني أسأل على (الفيلا المهجورة)!؟"

(نبيل) وهو يشير لـ(سعيد): "طب البس وتعالى نكمل كلامنا وإحنا في العربية، وغالبا ده هيبقى مقلب.. إزاي (فيلا مهجورة) وواحد بيقولك إنه مستنيك فيها!؟ يكونش ميت بيكلمك!؟"

(سعيد) بنظرة محبطة وهو يرتدي ملابسه الملقاة بلا اهتمام: "بص يا (نبيل)... استعنّا على الشقا بالله وخلاص"

هبط الاثنان درجات المبنى، وبخلسة نظر (سعيد) لأعلى ناحية النافذة المقابلة له، لشقة الأرملة الحسناء (هدايا) لعله يرتشف من جمالها القليل فلم يجدها، وقد استشعر الحرج وأحس بداخله بتلك النبضات السريعة نتاج الحب والإعجاب، ثم نظر لـ(نبيل) الذى يتابعه بابتسامة غير مريحة كعادته، سائرين إلى خارج الحي متجهين نحو (السيارة الصغيرة ذات اللون الأحمر الدامي الهاتش باك)، والتي أدارها نبيل منطلقًا بها بقوة مفرطة، مكونة سحبًا أخفت مدخل الحي بأكمله.

*****

أثار ما حدث تساؤلات عديدة داخل ذهن (سعيد)، بدايةً من الجريدة الغامضة، وذلك الإعلان الغريب الذى أشار بالتنازل عن الفضول، وها هي الأحداث تبدأ بإثارة فضوله من موافقة

صاحب العمل المبدئية وانتظاره له لاستلام الوظيفة الأغرب لعادات البلد (جليس لطفله)، وفي ذلك الوقت المتأخر.

أما (نبيل) لا يفعل شيئًا سوى الصمت، وكأنه يقرأ ويستمع لأفكار (سعيد)؛ فعشرة الصداقة بينهما قد جعلت لهما كيانًا فكريًا واحدًا رغمَ اختلاف الشخصيتين، فـ(سعيد) كالعذب الفُرات و(نبيل) كالملح الأجاج.

*****

وبعد قليل:

وصل الصديقان إلى مكان قريب من العنوان المنشود، مليئًا بأجولة من القطن مُشوّنة، فلمحا رجلًا يسير متلفتًا على غير هدى، يرتفع ضبه السفلي قليلا ويرتدى جلبابًا.

فأشار له (نبيل) مناديًا: "لو سمحت هو البيت المهجور فين؟؟"

تعجب (الرجل) من السؤال: "بِتِشأل ليه!؟"

أجاب (نبيل) بلهجة سريعة تهكمية: "مين غير ليه.. هو فين بس عشان مستعجلين!؟؟"

أجاب (الرجل) بدون وعي: "مشتعجل على إيه ياخوووياااا!؟ عموما امشي يمين هتُدخل أرض واشعة فيها شون قُطن، هتلاقي فيلا في الآخر كده.. خلي بالــك....."

قاطعه (نبيل) مستخفًّا به: "طيب طيب شكرًا"

ثم رفع زجاج نافذة السيارة اليدوي، غير عابئ بحديث الرجل مما أثار غضبه، عندما انطلق بالسيارة مخلّفًا وراءه ضباباً كسيارة رش المبيدات الحشرية، لينظر (الرجل) بغيظ تجاه السيارة، ويبدأ في وصلة من السباب المسموع لهم والمختلطة بالسعال، اختتمها بجملة لم تصل لآذانهما: "عيل متربّتش.. اللى زيك يستاهلوا كل اللي هيجرالهم"

*****

بعد أن استمع (سعيد) إلى السباب وقد بدأ الصوت في الابتعاد، نظر إلى (نبيل) الذي يدندن ببرود وقال: "مش كنت تسيبه يكمّل!؟ إيه قلة الذوق دي!؟ أهو هزّقك! أنا فرحان فيك!"

(نبيل): "يا عم ده شكله عبيط، وأهو سبته يشتمني ومردّتش عليه.. هو هيحكيلنا قصة حياته!؟ وبعدين هو مال أهله بسأل ليه على العنوان!؟ لازمتها إيه بأة الهئ والمئ والطبلة والرق!!؟؟ إحنا مستعجلين وخايف الشغلانة تضيع عليك والناس تزعل.. لو فيه شغلانة أصلا!"

(سعيد) مربتًا على فَخذ صديقه: "يا عم متشكرين.. تقول الكلمة كويسة وتسممها باللى بعدها..."

قاطعة (نبيل) مشيراَ نحو الفيلا: "أهي يا عم الفيلا.. إيه الجو ده!؟؟ ده زي ما يكون الناس بتبني بعيد عن الفيلا!"

نظر (سعيد) إلى المكان، فلمح بصعوبة فيلا عتيقة التصميم من ثلاثة طوابق مرعبة المنظر غير واضحة المعالم، تلوح في الظلام

بفانوس معلق تحيطه عدة أنواع من الحشرات الطائرة، يعافر ذلك الظلام بضوئه ليشير بأن هناك فيلا قابعة بهذا المكان، أمامها شجرتان ضخمتان تميلان كبوابة من الطبيعة عبر ساحتها الواسعة التي بلا حارس أو غفير؛ ثم أدار برأسه ليشاهد تلك المباني البعيدة جدًّا عنها، كأنها تتحاشى الاحتكاك بها، ومسوّرة مبانيها بأسوار عالية!

لأول مرة شعر (الصديقان) معًا برجفة تسري في بدنهما، خاصةً عندما تذبذب ضوء الفانوس، وكأن الفيلا تختفى وتظهر من العَدَم مرة أخرى في مشهد مخيف مختلط بصوت الرياح الهادئ، وحشرات وزواحف الليل التي تحتفل بقدومهما، وازداد الصوت ارتفاعا عندما أبطل (نبيل) محرك السيارة، ونظر إلى (سعيد) نظرة تساؤلية فيما معناها: "هتعمل إيه يا (سعيد)؟؟"

*****

ابتلع (سعيد) ريقه في صعوبة بالغة بسبب ريبة المكان، وهو يفكر في احتمالية عدم وجود سكان قاطنين بتلك الفيلا، وأن (المتصل) يسخر منه، ولكنه صمم أن لا يضيع الفرصة مهما بلغت غرابتها أو قلت احتمالية واقعيتها، لذا ترجل من السيارة وعيناه لا تفارقان مشهد الفيلا المخيف، وما جدد له الأمل هو ذلك الفانوس العتيق متذبذب الإضاءة، والذي له الفضل في إظهار الفيلا.. لكن قطع دوامة أفكاره صوت غلق (نبيل) لباب السيارة، فنظر له قائلا: "بالراحة يا جدع على العربية!"

نظر له (نبيل) قائلا: "بتحبها أوي كده!؟ ما تتجوزها ياد بدل ما

انت مقضيها في البيت كده لوحدك. خليها تكلكسلك في الشقة وتونسَك"

(سعيد) كأنه لم يفهم: "قصدك مين؟ العربية!؟"

(نبيل) ملمّحًا: "إن مكانش ماركتها (هدايا بي إم) يا خفيف"

(سعيد) متفهمًا: "ظريف.. طب اسكت بأة أنا متوتر بجد.. خلّيني في اللي أنا فيه وبعدين نشوف (الهدايا بي إم)، اللي كل شوية أقولك تخصّني وانت حاشر نفسك، ولعلمك مبهزرش!"

(نبيل) كأنه لم يسمع كلامه وهو ينظر في ساعته: "طب مضطر بأة أمشي عشان الساعة داخلة على عشرة.. انت فاهم... المزز تنادي"

(سعيد) مبتعدًا: "أومال لما تتجوز هتعمل فيّا إيه!؟"

(نبيل): "مش هتجوز يا خويا.. ده شوية لت وعجن كده معاهم في التليفون بس بالليل.. أهو الوقت اللي بسيبك فيه وببقى فاضي... سلام بأة"

وقف (سعيد) ثم طرح مشكلة: "طب افرض همشي النهاردة ومخدتّش الشغلانة أو هستلمها بكرة، هروّح إزاي!؟؟"

بادره (نبيل) بالحل: "كلّمني يا عم، هتظهر على الويتينج وهجيلك.. مش قصة"

(سعيد) مكملًا سيره: "ماشي"

وكعادة (نبيل)، أدار السيارة وأوقظ أجولة القطن بأكملها من ما خلّفه من ساتر ترابي، مختفيا في لمح البصر.

أما (سعيد)، فتوجه نحو باب الفيلا بخطوات متثاقلة ومترددة، مهندما ملابسه الكلاسيكية المبهرجة، والتي لم تتغير بمرور الزمن، والتي أعطت انطباعًا لكل من حوله بأنه قد بدد شبابه بارتدائه تلك الملابس الفضفاضة، والسبب: "أجيب فلوس منين!؟ "

لكنه الآن قاب قوسين أو أدنى لوظيفة جديدة قد تدر عليه ما يغير حياته.

في تلك الثواني أثناء اقترابه من الفيلا، تراقصت الأحداث السابقة في ذهن سعيد، لتتسارع دقات قلبه غير مدرك السبب، هل فرحة أم قلق، ولكنها ليست المرة الأولى له لتلقي وظيفة. متأملًا بابها العتيق كأبواب القصور المخيفة، مغطى بالكامل بالأتربة كالأبواب التي تمر عبرها إلى عوالم أخرى، مستنتجا لنفسه: "أكيد مفيش حد هنا، مستحيل!!"

ثم جمع قوته وطرق...

لا إجابة، باستثناء دفعة من الأتربة التي توغلت داخل ثنايا صدره رغمًا عنه، وكأن باب الفيلا يعمل كسلاح ضد الطارقين ليحمي الفيلا من الدخلاء غير المرغوب فيهم، وتبدأ قصبته الهوائية في الانسداد والاختناق.

- "كح كح كح"

ابتعد (سعيد) قليلًا للوراء، وأزاح الضبابة بيده ملوّحًا بها في الهواء، ثم عاود الطرق أقوى. وكأن ذخيرة ذلك السلاح معمرة دائما، فالأتربة لا تنتهي والسعال مستمر، حتى تأكد أنه لا فائدة، فرجع للوراء، ونظر لأعلى إلى حيث تستحيل الرؤية، ثم نادى بصوت مبحوح: "يا جماعة ياللى هنا!"

لا إجابة!

كان متوقعًا له أنه مقلب، مُرحِبًا به بصدر رحب، لكنه استقبله بصدر مترب بدلا عن ذلك، حتى هيأ نفسه وبحزن شديد أن يرحل مبتعدًا بعد أن تأكد خلوها من البشر، وفجأة خيل له صوت غليظ وقوي: "مين!؟"

شعر على الفور بانفراج ضيقته فَرِحًا بتجدد الأمل، فلم يتردد: "أنا سعيد "، وهو يقترب منِ الباب ليستمع إلى صوت الخطوات الذي باتت قريبة، ليفتح له الباب، بعد معالجة أقفاله مختتمة بذات الصوت الغليظ: "ادخل"

لمح (سعيد) تلك الخلفية المظلمة، وبخطوات يشوبها القلق غاص فيها، لينغلق الباب من خلفه بقوة شديدة، ويضيئ المكان بالكامل، ليندهش (سعيد) مما شاهده!!

*****

تأمّل (سعيد) المكان من الداخل، وقد بان أرقى مما تخيل من خارجه. الفيلا واسعة من الداخل، ذات بهو رائع، يتوسّطه مانيكان مخيف يدور حول نفسه لا يدري كيف وكأنه يرقص

بقدوم (سعيد)، ذو ملامح مخيفة وحزينة، ثم تأمل (سعيد) ما وراءه، فشاهد صالة للاستقبال، على يسارها سلّما خشبيا واسعا متعرج الدرابزين، يصعد للطابق الثاني ويتحول إلى طرقة ناحية اليمين، وصولا إلى سلم آخر للطابق الثالث... تلفت في عجالة من حوله، فشاهد صالوني استقبال مختلفين يمينا ويسارا ينافسان بعضيهما في الجمال، لكن قَطَع عملية المسح الضوئي التي يجريها سعيد هذا (الصوت) الذي بدا قويا هذه المرة: "اتفضل"

التلفت (سعيد) إلى تلك المعالم الباردة، لوجه يشير لسن الستين من العمر، يبدو من سترته الوقار والاحترام، وأنه قد نال قدراً من الوسامة أثناء فترة شبابه، والتي تلاشت ماعدا زرقة عينيه، لكنه استحال أصلع وقد ماتت جميع الخلايا الصبغية بشاربه الثقيل وشعر رأسه الجانبي من نصاعة بياضهما، لكن (سعيد) توجس خيفة من نظراته، فنظر للأرض وهو يقول: "أتفضل فين حضرتك!؟"

أشار (الرجل) لأحد الصالونين: "هنا.. انت خريج إيه بالضبط ياا... قلتلي اسمك (سعيد) مش كده؟"

(سعيد) وهو يتردد: "آه من عيلة (القمّاش).. أنا مكملتش تعليمي وفشلت في مجالي، فدوّرت على كذا شغلانة تانية.. ربنا يكرم وأكون عند حسن ظن حضرتك ياأستاذ إيييـــ....

(الرجل): "(قدري)... (قدري الفولي)..."

(سعيد) مكمّلًا: "يا (أستاذ قدري)"

(قدري): "معاك الإعلان!؟"

تحسس (سعيد) جيوبه مصطنعًا الحيرة: "إيبـ.. بصراحة لأ.. مكنتش في البيت ساعة المكالمة اللي بينا"

رد (قدري) بذات البرود المخيف: "ممممم.. طب فاكر الإعلان بيقول إيه؟؟"

(سعيد) محاولا التذكر: "آه إني مكونش فضولي... ومسألش كتير وإيبيبـ.. بص يا (أستاذ قدري).. معلش أنا عندي مشكلة من صغري في التذكّر شوية أنا آسف!"

أومأ (قدري) وتحدث بصوته الغليظ: "باين باين.. ولا يهمك.. شغلك إنك في ساعات الليل هتخلي بالك من نور عينيا وحفيدتي الوحيدة (داليا) ٨ سنين، ملهاش حد ف الدنيا غيري، وأنا عديت الستين وبدأت أحس بتقصيري معاها.. ولإني مبقتنعش بدور الستات طلبت راجل، ودي تحط تحتيها ألف خط، عشان الغلطة بضياع الوظيفة، فاهم؟"

أومأ (سعيد) وفضوله يشتعل رغما عنه.

أكمل (قدري): "هحطّك تحت اختبارات خلال الأسبوع ده، لو فشلت همشّيك.. وكل اللي عليك تخلي بالك منها وهي نايمة، وأنا بخلّص شغلي على الصبح وقت ما انت بتخلّص"

استوقفه (سعيد) برفع إصبعه بأدب: "هو شغل حضرتك فين أو إيه؟؟"

(قدري) مجيبا بعجرفة: "هنبتدي من أوّلها!؟؟ متحشرش مناخيرك في حاجة، ولو حصلت تاني متستنّاش تشتغل هنا"، ثم أكمل: "انت بتيجي ١٠ بليل وتمشي ١٠ الصبح"، ثم أردف بثقة تامة: "كتير قدموا ومشّيتهم، وأنت الوحيد اللي توسمت فيك خير.. وعلى فكرة مرتبك هيبقى ٥٠٠٠ جنيه"

أحس (سعيد) بعد ذكر المبلغ بأن هناك من طرق على رأسه بمطرقة من حديد، وقد تراقصت الأوراق المالية والعملات المعدنية ملتفّة حول رأسه، وغاب للحظة متخيلًا حياته مستقبلًا بتلك الوظيفة، وفكر أنه لو طلب (قدري) منه لبن العصفور لأتاه بعصفور مهجن بست أثداء.

فسأل الجدَّ قدري متلجلجًا: "تحب نبتدي من إمتي!؟... آه آسف إني سألت... مش قصدي... إيييـ...." وبدأ يتصبب عرقا.. يا لغبائه! لقد أضاع الوظيفة بسؤاله!

أجابه (قدري) وقد أدرك توتره، وهو يربت على كتفه ويسوقه صعودا للطابق الثاني حتى حجرة ضعيفة الإنارة: "ده سؤال عادي من سياق كلامنا... النهاردة تبتدي تتعرف على (داليا)، وده هعتبره أول يوم ليك شغل.. وامتحان كمان"

أومأ (سعيد)، وقد أحس بالاحتباس الحراري من فرط الفرحة والسعادة، سرعان مازال عندما دلف لحجرة الطفلة (داليا).

شاهد (سعيد) طفلة جالسة على كرسي هزاز يحدث صرِيرا يجز الأسنان، ينساب شعرها الأسود بإهمال شديد غير مصفف.

وكأنها لا تلقي بالا بوجودهما، تتحدث بصوت خافت مع دمية قديمة ودميمة بشعة المنظر، وهي تصفف ما تبقى من شعرها القصير لولد ذو شارب، كبيرة الحجم قاتمة اللون، وجهها مغمور المعالم مشوه، لها عينان شديدتا السواد، ظن (سعيد) أنهما تنظران إليه، حتى سرت بداخله تلك القشعريرة السريعة التي تأتيه بين الحين والآخر.

أحس بالخوف للحظة، كتلك اللحظة التي شاهد فيها كيان الفيلا من الخارج!

ربت (الجد) مرة أخرى على كتف (سعيد)، مشيرا له بالتقدم، وهو ينسحب مشيرا بأنه في الأسفل، فأومأ (سعيد) متفهّمًا، ثم تقدم إلى (داليا)، وبزجرة خفيفة تبدو كالكحة لتسليك صدره، أنذرها بوجوده.

فور إحساس (داليا) بوجود شخص غريب داخل حجرتها، توقفت عن الاهتزاز والتمشيط دون الالتفات، وبدأت ترتعد بدميتها التي قبضت عليها بشدة!

*****

ـ "متخافيش يا حبيبتي.. أنا عمو (سعيد)"

مد يده نحوها ليصافحها، فنظرت من وراء شعرها المنسدل إلى يده، ومنها ارتفعت إلى وجهه لتتفحصه.

نظر (سعيد) نظرة ثاقبة إلى ملامح وجهها، ذات البشرة البيضاء

التي زادت من إضاءة الغرفة، فتاة ذات وجه ملائكي جميل، وعينين خضراوتين، تم معالجتهما بنظارة طبية تزيدهما جمالا، قد ورثتهما عن (جدها) البارد، لكنهما تحركان مشاعر الحنان فور النظر إليهما، فداعبه إحساس الحرمان؛ فكم كان يتمنى الزواج وحصوله على ابنة صغيرة، متخيلا دخوله عليها مفرغا جيوبه من الحلوى والعلك، وهي تطير من الفرحة، وتشكره بقبلة أبوية حارة تكسب حياته طعما ولونا، وتحتضنه حنانا طيبا.

ففكر في لحظة في حظه الآن من منافع تلك الوظيفة، هذا الرزق، كأنه تزوج بمرتب وحصل على ابنة يكسبها الحنان وهي تبادله الحب الأبوي، فانفجرت عيناه بالدموع غير قادر على إمساكها، وأحس أنها مسؤولية وقعت على عاتقه. لقد أحبها منذ النظرة الأولى.

فكرر جملته بطريقة أحن: "متخافيش يا حبيبتي.. أنا عمو (سعيد) وجيت عشان أخلّي بالي منك.. (جدو) حبيبك اللي قالي آجي عشان (داليا) حبيبته"

نظرت (البنت) له ثم قالت بضيق: "جدو مش حبيبي"

(سعيد) متوقعًا هذا الرد: "ليييه!؟ ده بيحبّك!"

(داليا): "لأ مبيحبنيش، ودايما تحت في المخزن بيشتغل ومبيرضاش آجي معاه"

(سعيد) محاولًا تغيير الموضوع: "طب عاملة إيه في المدرسة؟؟"

(داليا): "جدو مش بيوديني مدرسة!"

كمحاولة لكسب ثقتها، مد (سعيد) يده بقرف ليمسك بـ(دميتها): "طب ورّيني كده عروستك الحلوة دي!"

تركتها له (داليا).

عندما تفحص (سعيد) تلك (الدمية) الغامضة، أحس بألم مبرح في رأسه ينكز مخيخه من الداخل، وكأنه ينذره من إطالة النظر، وقد أحس بثقلها فسقطت من يديه!

وعليها صاحت (داليا) في وجهه: "انت بتعمل زي جدو بترمي عروستي ليه!!؟؟ انت وحش زيه، انت بتموّت الناس زيه"

ثم انخرطت في بكاء مكتوم مقابلة للحائط، مبتعدة عن (سعيد)، الذي فتح عينيه اللتين حملتا مليون سؤال وسؤال.

ما الذي يحدث له!؟؟

ويبدو أنه سيقطع شوطا طويلا لتكييف (البنت) على مخاطبته دون خوف، وتكييف نفسه على مشاهدة تلك (الدمية) المخيفة، ذات خصيلات الشعر الكثيف وغير المهذب، والعينين الداكنتين، وذلك التأثير الغريب، يكاد يقسم أنها تحمل سرا قد يتعدّى قوانين المنطق!

تذكر (سعيد) كم كان يعشق الدمى كـ(داليا)، لكن تلك (الدمية) أثارت داخله إحساسًا تخلل أطرافه عندما التقطها، ودون النظر إلى وجهها حملها ووضعها على الكرسي المهتز،

كمحاولة لمصالحة (داليا).

ثم اقترب منها قائلا: "أنا آسف مكنش قصدي أزعّلك ولا أرمي عروستك.. أهي قاعدة على الكرسي"، ثم اقترب من الكرسي ودفعه بطريقة مضحكة ليهتز مكملًا: "وأهو يا ستي عروستك آخر رواقة وبتتمرجح"

ضحكت (داليا) لـ(سعيد)، الذي أحس لأول مرة باجتماعيته، وبارتفاع مؤشر العلاقة نحو النجاح.

ثم توجه نحو زر الإضاءة ليزيد من إضاءة الغرفة، وبدأ يفحصها جيدا. فهي غرفة يتمناها أي طفل، يتعجب من (داليا) التي تحمل حزنًا دفينًا رغم تلك المملكة التي تسكنها، لكن الحنان مطلوب، وهذا (الجد) يبدو أنه يفتقد للكثير منه، ويسيء استخدام ما يملكه معها.

ثم لمح جهازًا قديمًا يشبه الفيديو جيم قد اعتلته الأتربة، فنفخ فيه محاولةً لتنظيفه، ثم نظر لساعته ذات الزجاج الباهت، فوجدها اقتربت من الحادية عشر، فلا بأس ببعض الوقت لاكتساب الثقة. ثم بحث في علبة الأشرطة المجاورة للجهاز، واختار إحدى الألعاب، وأخرج شريطها وتعامل معه حتى قام بتشغيله، ثم دعا (داليا)، والتي أكملت تمشيط شعر (الدمية) بالمشط الذي ينتشل خصلة منها في كل تمشيطة ساقطة على الأرض، وينتقص من فروة رأسها دون دراية (داليا) بذلك. وبتلقائية شديدة لملم (سعيد) تلك الخصل السوداء ووضعها بجيبه، ثم نادى عليها ودعاها للعب، فتركت المشط ورحبت

بالدعوة، وقضيا ساعة من اللعب والمرح، استطاع فيها (سعيد) أن يجتذب ثقة (داليا) بنجاح، يحاول أن يبعد عنها أي فكرة سوداء انطبعت في ذهنها من (العم سعيد).. جليسها!

وفي كل فاصل يتشتت انتباهه عندما يلمح تلك (الدمية) التي اقتربت من الصلع، وهي تنظر في اتجاههما وكأنها تتابعهما بنظرات الغيرة.. لكن نداء (داليا) كان له الأثر في إعادة تركيزه وصرف نظره عن (الدمية) عندما قالت: "كمان يا (عمو سعيد) عاوزة ألعب الدور ده تاني!"

كشرِ (سعيد) بتركيز شديد متطلعًا للوقت الذي تأخّر، لذا ردّ نافيًا: "لأ كفاية كده.. لازم تتعودي تنامي بدري عشان السهر وحش عليكي يا (داليا)"

اعترضت (داليا): "يوووووه بأة!"

ضحك (سعيد) لها، وقد فرح من داخله من تبادل هذا الحوار الذي أشبه بأب يخاطب ابنته، لذا ربت عليها قائلًا: "معلش أوعدك هنكمّل بعدين بس لازم تنامي"، ثم أشار لها نحو باب موارب وقد تبين أنه دورة المياه الخاصة بها: "هتدخلي الحمام؟؟"

(داليا): "أيوة يا (عمو) عشان أغسل سناني"

ابتسم (سعيد) من تسهيل المأمورية عليه ومن نصاحتها، فقال: "شاطرة يا (داليا).. ثم أطفأ الجهاز ورجع بظهره على الكرسي، وتبسم ارتياحا من نجاح برمجة (داليا) في تلك الساعات الأولى،

وما تبقى منها ستقضيه نومًا هنيئا، وهو سيتخذ تلك الأريكة التي بجانبه منامًا له، وأثناء وجود (داليا) بدورة المياه قام بتهذيب سريرها، لكنه سمع صوت صرير غير منتظم صادرًا من أسفله، هُيأ له أنه ليس حقيقيًا، لكن الصوت عاد بقوة فأثار فضوله، وسجد على الأرض باحثا فلم يجد شيئًا... نفخ من الوهم الذي أصابه، لكنه عاد مُربكًا مرة ثالثة، فانتفض معه، لكنه أدرك أنه صادر من الأسفل، لذا أزاح مشّاية صغيرة لتظهر أرضية من (الباركيه) القديم، ووضع أذنه عليها واستمع بتمعن وقلق شديدين!

*****

ـ "عمو سعيد بتعمل إيه!؟؟"

كاد قلبه يتدحرج خارجا من موضعه عندما سألته (داليا) بذاك الصوت المضطرب.

فنظر لها، وإذا بها مفزوعة من وضعيته: "لا يا حبيبتي مفيش.. كنت بفرش السجادة دي في مكانها صح"

نظرت (داليا) لموضع نومها فرحة؛ فقد راق لها تهذيب السرير، ثم طلبت من (سعيد): "ممكن تجيبلي عروستي؟؟"، ثم أشارت نحو (الدمية). اندهش (سعيد) جدا؛ فكيف لطفلة بتلك البراءة أن تتقبل هذه البشاعة بجانبها وبين أحضانها!؟ ولا شك أن الكوابيس ستحتل حدود سريرها اليوم، فأومأ لها هامسا: "ماشي.. ربنا يستر"

واقترب من (الدمية) وهو ينظر لها وكأنها تحذّره من الاقتراب، فأمسكها وناولها لداليا، وقد قرر أن يحاول إبعادها بطريقة ما عنها شيئا فشيئا خلال الأيام القادمة.

على الفور تقلبت (داليا) عدة تقلبات، وراحت في سُبات عميق. تنهد بعدها (سعيد) ارتياحا، ثم نظر لساعته، وأخرج هاتفه واتصل بنبيل الذي لم يجبه.

غضب لعدم تجاوب (صديقه)، فألقى بهاتفه على الأريكة، ثم لمح (داليا) بنظرة أخيرة، ولـ(دميتها) بنظرة كريهة، وقد ضاقت نفسه. قبل أن يثب على الأريكة ويذهب إلى نومته غير المستقرة التي أصابته منذ وفاة والديه، ومظاهرها تقلبات عدة وتصبب لعرقه، لكن هذه المرة زادت عليه بشدة، وقد برر لنفسه أنه مكان جديد ولم يعتد عليه بعد، ثم غلبه سلطان النوم بعد معركة شرسة معه بساحة من الكوابيس، حتى الصباح الباكر.

*****

وفي الصباح:

نظر (الجد قدري) إلى (سعيد) الذي تورمت عيناه من قلة النوم: "داليا نايمة يا (سعيد)؟؟"

أومأ (سعيد) له محاولًا اصطناع أنه منتبه لسؤاله، فأضاف: "تمام يا (أستاذ قدري)"

(قدري): "طيب تمام.. خُش اغسل وشك بسرعة عشان عاوز أقولك حاجة"، ثم أشار نحو باب دورة المياه الخاصة بالضيوف الموجودة بالبهو.

على الفور اتجه (سعيد) نحوها، ودلف غالقا الباب خلفه، وتبول خيطا طويلا من الماء، ثم ضغط على السيفون قديم الطراز ملتفتا نحو المرآة، وبرقت عيناه من الرعب!

*****

نظر (سعيد) نحو عينيه الحمراوتين المتورمتين وكأنه كان يبكي بشدة.

أحس بالحيرة، طس الماء بوجهه في عجالة، وظل ينظر إلى عينيه اللتين ازدادتا احمرارا، ثم تذكر أن (الجد) في انتظاره وأن وقته بالداخل قد طال، فشد السيفون مرة أخرى.

ثم خرج مبتسمًا بإحراج، مبررًا تأخيره بالداخل: "أنا آسف شكلي جالي برد في بطني"

لم تتغير ملامح (الجد) الباردة، ثم أدخل يده في جيبه، وأخرج رزمة من النقود مناولا إياها إلى (سعيد)، الذي تعجّب متسائلًا: "إيه دول!؟"

(قدري): " مقدم مرتبك عشان شكلك مكمّل"

ابتسم (سعيد) في داخله، وقلبه يتقافز من فرحته وهو يتناول النقود، لكن لم يظهِر بسمته للجد قائلا: "مش عارف أشكر

حضرتك إزاي.. أنا... أنا فعلا كنت محتاج فلوس و...

قاطعه (قدري): "دول ألف جنيه... ودلوقت تقدر تتفضل.. ومتنساش كل يوم.. الساعة ١٠ بليل.. ليك إجازات بس هابقى أقولك قبليها"

لم يبال (سعيد) من تصرف (الجد) البارد؛ إذ غلبته فرحته بالنقود فشكره: "شكرا جدا ومش هانسى"، ثم توجه نحو باب الفيلا، الذي بدت تفاصيله واضحة له من الداخل، وبه بعض الكسور الكبيرة والتي تم إصلاحها، ومد يده لمقبضه ليفتحه.

وفي نفس الوقت، دوت صرخة طفوليه رهيبة في المكان، اختلج لها قلب سعيد مع جدران الفيلا، ليسحب يده وقد أدرك مصدرها.. إنها لـ(داليا)!!

*****

(٢)

وصاحت نيران الفضول: هل من مزيد!؟

بتلقائية شديدة التفت (سعيد) متجهًا نحو درجات السلم، مسرعًا في خُطاه إلى حجرة (داليا)، ليصيح به (قدري) على بعد عدة خطوات بقوة: "استنى عندك!! الساعة عدت ١٠!"

تجمد (سعيد) من صيحة (الجد)، يداهمه قراران متضاربان: هل ينفذ الأمر؟ أم يذهب للفتاة وتضيع عليه الوظيفة؟

فآثر الوقوف، وقد ارتسمت عليه ملامح الحيرة قائلا: "بسسسسسسس...."

(قدري) آمرًا مشيرا للخارج: "مابسّش... نسيت شروط الوظيفة!؟ اتفضّل يلا عشان مغيرش رأيي!"

أطرق (سعيد) برأسه للأرض متجهًا نحو الباب، وهو يقول: "حاضر.. هطمّن عليها بليل بأة!"

ربت (قدري) على كَتفه من الخلف محتدًّا: "(سعيد)... هي كلمة أخيرة، بعد كده هتروّح ومش هتيجي تاني.. أنا اتوسّمت فيك الخير خصوصا إنها ارتاحت معاك.. دورك وانت عارفه.. أي حاجة تانية همشيك.. وفيه غيرك يتمنى شغلانة بالمرتب ده... فهمت!؟"

(سعيد) وهو يلتفت ناظرا نحو (المانيكان الدوّار)، وقد أحس

بجو مضطرب يحوم حول هذا (الجد) الشرس و(فيلّته): "حاضر"

ثم خرج بدون تعليق، لتقابل عينيه أشعة الشمس، ليغمضها من قوة تأثيرها، وبدأت تشاركها الأتربة في مداعبة باطن أنفه، ليعطس عدة عطسات، ثم أغلق الباب من خلفه ناظرا للفيلا نظرة أخيرة، ليتفحصها في ضوء النهار، لتظهر مخيفة أكثر بسبب طرازها القديم عمّا كانت بالليل، ثم لمح شخصًا ماثلا بالأعلى يشاهده عبر النافذة، وسرعان ما اختفى للوراء بخطوات متثاقلة وكأنه يُسحب للداخل!

أحس (سعيد) بِصداع يجتاح رأسه؛ فحولها تتراقص علامات من الاستفهام وتضيق الخناق عليها، يتخيّلها كالقبائل الملحدة التي تعد شعائرها لإلـه لا بُرهان له بالرقص حول النيران، التي تزداد علّوا ونُفورا كلما ضاقت الدائرة من حولها، تماثل نيران الفضول الملتهبة بداخله.

فجَلس على الرصيف لبرهة من الوقت حتى أراح ذهنه قليلا، واتجه إلى رحلة العودة للمنزل هائما على وجهه، وقد اشتاق إلى سريره المُزعج وغير المريح رغم كل شيء.

*****

تطلعت (فتاة) في نهايات العقد الثاني من عمرها، ذات عود فرنسي صارخِ الجمال، ترتدي عقدًا غليظًا ملفتًا، كُلّما تحركَت أصدر جَلبة مُلفتة للنظر، ذات ناجذين يظهران دون أن تبتسم،

وطابع الحسن يتصدر ذقنها الصغيرة.. إلى ذلك (الشاب) الهائم على وجهه وقد بدا أنه شارِد الذهن، يسأل المارة عن الاتجاهات، تتبعته منذ خروجه من الفيلا وصولا بها إلى موقف المواصلات العامة، وبمجرد مشاهدة اثنين من السائقين له، تعاركا على شرف توصيله مع أحدهما، وبه يكتمل العدد.

تابعت تلك (الفتاة) رد فعل الشاب، فإذا به يعتذر للاثنين ويشير له ثالث إلى السيارة الثالثة في دورها تفادي للصدام والعراك، ليدلف إلى الأريكة الوسطى بجانب النافذة.

على الفور أسرعت (الفتاة) لتجلس بجانبه.

نظرت له خفية وهو يريح رأسه للوراء وكأن بها هما يسكبه خارجها مغمضًا عينيه.

التفتت له (الفتاة) بجرأة، مصطنعة الاهتمام: "شكلك تعبان.. معايا دوا للصداع"

فتح (الشاب) عينيه، فلفت نظره ذلك الجمال الأخّاذ، والذي أذهب الصداع في ثوان، فرد بلهفة: "يا رييت!"

لم تنتظر (الفتاة) منه تلك الإجابة، فعبثت بحقيبتها وكأنها تبحث عن الدواء، ثم تلعثمت: "مش عارفة بأة... مش لاقياه"

فابتسم (الشاب): "مش مهم.. متشكرين على ذوقك"، ثم أشار لزجاجة المياه التي بحوزتها: "طب ممكن؟؟"

فَرِحَـتْ (الفتـاة): "آه طبعـا.. أهـو برضـه الثـواب مـراحش ع الفاضي.... بس شكلك تعبان أوي"

ابتلع محتوى الزجاجة في ثوان، ثم مسح فمه: "أححح.. أوي"

مدت يدها اليسرى لتتناول الزجاجة، ثم مدت اليمنى لتصافحه: "لمياء"

رد (سعيد) مصافحًا في دهشة من سير الحوار: "سعيد... سـعيد القمّاش..!!"

(لمياء) بابتسامة خافتة اتسـعت بهـا نواجـذها: "الشـجرة الـلي ضِلّها قاتم أوي"

(سعيد) متعجبَا: "نعم!؟"

(لمياء) مُحرجـة: "ده معنـى اسـم لميـاء.. إحـم.. بقولـك معنـى اسمي"

ضحك (سعيد): "طبعا مش محتاجة أقولك معنى اسمي.. أديكي شايفة!"

قهقهت (لمياء)، ثم تداركت أن الميكروباص قد اكتمل عدده، وغُلّقت أبوابه لينطلق، فتوقفت عن القهقهة حتى لا تُلفت النظر، ثم قالت: "فرصة سعيدة يا أستاذ سعيد"

(سعيد): "أنا أسعد.. انتي من البلد؟؟"

(لمياء) بنظرة دهشة مُفتعلة: "كنت لسّة هسألك السؤال

ده!!... آه، بس البلد كبرت بأة وسكانها زادوا مع الوقت"

(سعيد): "عندك حق"، ثم تطلع لملابسها الغريبة وذلك العُقد الغريب، ولم يعلق، لكنها لمحت نظرته المتفحصة، فسهلت عليه التساؤلات تواتيه بالإجابات: "عقد جدتي.. الله يرحمها.. (الشيخة فرح)"

اندهش (سعيد): "الشيخة فرح ستّنَا الكبيرة!؟"

أومأت (لمياء) بنعم.

(سعيد) مكملًا: "دي من أصحاب البلد.. الله يرحمها.. مكدبش عليكي، دي عليها حكايات مخيفة.. سرها كان باتع، بس أنا مش فاكر ولا قصة الصراحة"

(لمياء) هامسة: "متصدقش.. دي كانت طيبة.. أنا مبصدقش.. كنت حتى ورثت منها الحوار ده"

(سعيد): "نفسك!؟"

(لمياء): "يا ريت! حد ميتمناش يبقى من أهل الخطوة!؟ هقولك سر"

انتبه (سعيد)، عندما أكملت: "انت بتحسب إن الناس اللي زيها دول بيقدروا يروحوا أي مكان في الأرض بس!؟ تؤ، دول بيقدروا يروحوا أي عوالم تانية.. زي مثلا..."

استوقفها (سعيد) رغم تشوقه، عندما شاهد هاتفه يرن فلاحظ

أنه (نبيل)، فرد على الفور: "انت فين يا ابني!؟"

نظرت (لمياء) محرجة للأمام احتراما لخصوصيات المكالمة، لكن كان لأذنها رأي آخر، فمدّتْها بجانبها لتستمع، لكنها فشلت في أن تسمع الطرف الآخر، فركزت في حديث (سعيد) لتستنبطه.

******

(نبيل): "انت بتشتغل فقلت مازعجكش بأة!"

(سعيد) غاضباَ: "تُقصد...!؟"

(نبيل) مستهزئا: "شغلك الجديد!"

(سعيد): "واضح إنك زعلان يا (نبيل) عشان جالي رزق!"

تلعثم (نبيل): "لأ طبعا.. بس امبارح اتخانقت مع الـــ....! غيرة غيرة غيرة لغاية ما قرفْت..."

ضحك (سعيد): "عشان كده مردتش.. مممم.. معلش يا صديقي كلّهم.......". ثم نظر إلى (لمياء) التي تنظر أمامها، فتلعثم: "طب بص هاأوصل وأكلمك، أنا في المواصلات!"

نفخ (نبيل): "مش واخد بالك إنك بقيت بتنفّضلي كتير!؟ اللي شاغلك مش هينفعك على فكرة... البنات"

برقت عينا (سعيد): "عرفت منين!!؟؟"

(نبيل): "أنا حافظك صَمّ وعارف امتى بتقلب مني، خصوصا لما

بيبقى فيه بنت.. مع إنك كفتة معاهم.. نتقابل بالليل يا (سعيد)... سلام"

لم ينتظر (نبيل) رد (سعيد)؛ إذ أغلق المكالمة على الفور، وترك (سعيد) حزينا، وقد شعر أنه أهان صديق عمره وعشرة حياته، ثم عاد بنظره نحو (لمياء) فلم يجدها بجانبه وقد اختفت تماما!!

*****

جال (سعيد) ببصره باحثا عن (لمياء)، فوجدها قد انتقلت للأريكة الأمامية. لم يشعر (سعيد) من تركيزه في الحديث بانتقالها، فأحس بأنه أحرجها!

فضغط بطرف إصبعه على كتف (لمياء): "لا مؤاخذة يا (لمياء) تليفون مهم جدا"

(لمياء) بخباثة: "ولا يهمك يا (سعيد).. شكل التليفون وَتَّرَكْ!"

(سعيد): "بصراحة أوي... كملي كنا بنقول إيه؟"

ضحكت (لمياء): "نكمّل بعدين أنا نازلة هنا"، ثم صاحت للسائق: "هانزل هنا لو سمحت"

ثم ودّعت (سعيد)، وبادرته بحل علامة من علامات الاستفهام التي ارتسمت على وجهه: "هنتقابل تاني متقلقش"

ابتسم (سعيد) وبرد تلقائي: "حفيدة (الشيخة فرح) بأة، أكيد

عارفة امتى كمان!"

نظرت له وهي تفتح الباب وتفتح فمها بابتسامة ساحرة: "أهل الخطوة مش بيعرفوا المستقبل... باي"

(سعيد) محافظًا على ابتسامته: "باي"

ثم أكمل (سعيد) في طريقه، حتى هبط على أول الطريق، ومعدته تصدر أنينًا مزعجًا... أنين الجوع.

*****

تجرّع (سعيد) من دورق المياه حتى آخره، ثم رجع للوراء وقد أحس بنشوة الشبع التي افتقدها منذ زمن، ثم أغمض عينيه كالمدمنين، وهو يتكرع الهواء الحبيس بداخل معدته، ليتيح بها مكانا حتى يَدْفس قطعة الكباب الأخيرة في فمه، ويمضغها ببطء؛ فقد وصل على آخره وقد تعرق وأحس بكتمة في نفسه، ثم شعر بالقذارة فاغتسل، ثم صَبّ إجهادُ الفترة السابقة وشدة الحرارة وحمو النفسيات المحطمة الذي شاهده اليوم سوطَ عذاب ينذره بالنوم، فثقلت عيناه وارتمى على سريره بملابسه الداخلية. حاول ترتيب أفكاره منذ البارحة مرورا بمقابلته بـ(لمياء) الحسناء، والتي أحس بإعجابها له، حتى غلبه سلطان النوم، ليسقط في بحر من الكوابيس التي طالما استغلت الفرصة وانتهكت حرمة نومه لتذيقه من العذاب ألوان.

*****

بمجرد توديع (سعيد)، انطلقت (لمياء) نحو مساحة شاسعة لها بوابة كبيرة ينبعث منها ضبابا كثيفا... مكتوب عليها (تُرَبْ المكنون).

ثم دفعت ببوابة حديدية، وهي تنظر نحو العديد من الكائنات غامضة الملامح، يراقبوها وهي تتوجس منهم خيفة، فنظرت نظرة حزن يشوبها القلق، وتحركت ببطء ناحية أحد القبور المميزة، ذات جودة بناء ساحرة تشبه المقامات، وقد كتب عليه (الشيخة فرح)، وأدعية منحوتة باحترافية على شاهد قبرها النحاسي، وبعض الجمل التي تودعها، وكأن هذا القبر القابع في مدافن الحريم يخيفهم من الاقتراب حتى في عز النهار؛ وهي تدلف ويتصبب منها العرق، وقد سئمت من خطواتها المكررة كل يوم.. توجهت نحو نافذة مواجهة لقبر جدتها، ولمحت بالداخل جسد (سيدة عجوز البشرة) يبدو أنها تعاني الأمرِين، أمامها آلة كاتبة، وهي تكتب ببطء شديد، محاطة بأنابيب وأسلاك تنتهي بإبر غليظة تخرج وتدخل بجسدها، تنغرز فيه بعشوائية، وتنبعث من حولها رائحة المستشفيات، والجدران ملطخة بالدماء، ثم جثم الظلام من حولها.. وبمجرد أن انتهت من كتابتها، لمحتها ونظرت ناحيتها.

حاولت (لمياء) كعادتها أن تتفحص وجهها المختبئ أسفل الأربطة، لكن عينيها الحمراوتين كالدم الظاهرتين فقط منعتاها خوفًا منها، ثم تناولت الصفحة التي كتبتها بيدين داميتين، ووقفت بصعوبة على قدميها وترنحت ناحية النافذة المطلة على (لمياء) كمن يبدو عليها الإجهاد، وتركت لها الصفحة،

وسقطت على الأرض.

شهقت (لمياء) من السقطة، ثم دست رأسها جاهدة لمشاهدة (العجوز) وهي تزحف عائدة لمكانها، يصدر عنها زمجرة مخيفة، وقد أدركت شيئا جديدًا ومرعبًا ليس ككل يوم قد يقلب الموازين في هذا المكان لكن للأسوأ، فانتشلت الصفحة بسرعة ووضعتها بحقيبتها وخرجت مسرعة، وبدأ الظلام يتبدد ويعود النهار مرة أخرى، ثم ودّعت قبر جدتها في سرها، وبمجرد هدوء أجواء الرعب، نظرت للصفحة و برقت عيناها ندمًا وفزعًا، وقد أيقنت خطأها الفادح.

*****

أدرك (سعيد) أنه الآن داخل وصلة من الأحلام القصيرة المتتابعة، التي سرعان ما تحولت جميعها إلى كابوس واحد لعين، وتيمة الرعب به تلك الدمية المخيفة التي ظهرت له من العدم، في كل حلم دائما ما يراها نائمة بجواره مبتسمة له بهدوء، وقد ازداد تشوه وجهها... وتتسارع نبضات قلبه ليس خوفا إنما يشعر بها كنبضات اللهفة والشوق وكأنها حبيبته، ثم تبدأ ملامح الدمية في الاختفاء، وبينما تختفي يزداد عبوسها، ثم تتحول إلى ملامح (داليا)، وتخرج الدماء من كل ثقب بها وتتناثر على وجهه لتستحيل الرؤية، لكنها تنقشع فجأة، وإذا به مستيقظ وغارق في عرقه المتصبب.

انتفض من النوم، ونظر نحو ساعته فوجدها تخطت الساعة السادسة.

أحس بجفاف حلقه وقد تصببت كل قطرة من سوائل جسده من إثر هذا الكابوس.

تذكر وجود زجاجة بجانبه منذ الصباح، فلم ينتظر إذ تناولها وشرب منها، ثم بصق مياهها الساخنة قائلًا لنفسه: "لازم أصلّح التلاجة!"

ثم ارتدى البيجاما، وخرج من شقته هابطا درجات السلم المظلمة، التي أصابها الإهمال بعد نزوح جميع السكان عن المبنى منذ فترة طويلة لقدامته وكثرة الشروخ به، وهو يفكر في تركيب لمبة بخارج شقته بدلا من تلك المعطوبة؛ فهو الساكن المتبقي الوحيد، ويوجد البواب أيضا في غرفته بالأسفل، لذا هبط السلالم بحذر شديد، ثم طرق باب غرفة البواب.

لا إجابة.

فكر (سعيد) في إفلاسه الذي أخرج البواب عن طاعته وعن تقضية طلباته واحتياجات الشقة، وشجّعه على ذلك رحيل الأهالي عن العمارة ولانتفاء مصلحته، فتمرد!

طرق مرة أخرى أقوى.

لا إجابة.....

تبين لـ(سعيد) أن باب الغرفة موارب، فلم يتردد إذ دفعه وهو ينادي: "عم مُخلف.. عم مُخلف..."

فوجده نائمًا على الأرض بلا حراك!

ثم ارتفع بجزعه مفزوعًا كمن استيقظ من الموت، فإذا به يرتدي عمامة وجلبابا رماديا منقوشا عليه بقع حمراء جافة!

تنفس (سعيد) الصعداء.. لقد جمح بخياله كالصحن الطائر بعيدا عن الواقع... ظن أن الرجل قد أصابه مكروه ما، خاصةً نومته بملابس غير ملائمة، فقال له: "يا عم مُخلف اطلعلي عاوزك تجيبلي طلبات"

ثم أغلق باب الحجرة الأبيض الذي يشبه باب ثلاجته، فتذكرها، فأراد أن يلمّح للبواب عنها لاستدعاء صيانة لها.

فتح الباب مرة أخرى، لكنه لم يجد أحدا!!

مسح ببصره في تلك الغرفة الصغيرة، فلم يجد إلا ملابس الرجل على الأرض!

هم ليعاينها، لكن أطبق الظلام فجأة من حوله، فانتفض نحو الخارج صاعدا بسرعة البرق وهو في أشد حالات الفزع، ليرتطم بشخص أثناء صعوده ليتأوه، وإذا به يتبين ماهيته، فقال وهو يرتجف: "نبيل!!"

(نبيل): "سعيد!؟ مش تفتّح!؟ مالك!؟؟"

(سعيد) ومازال يرتجف: "(نبيل).. البوّاب اختفى!!"

وبدأ يحكي لـ(نبيل)...

*****

(نبيل): "يا ا بني انت نسيت إن عم مُخلف ميّت!؟"

(سعيد): "امتى ده!؟"

(نبيل): "من زماااان.. حد دخل أوضته وضربه وهو نايم.. كان عاين فلوس... فاكر لما قلتلك إنه منَتّن وبيخبّي فلوسه تحت المرتبة!؟"

(سعيد): "مش فاكر"

(نبيل): "انت مكنتش موجود أصلا عشان كده محدش كلمك على الحادثة دي"

(سعيد): "إزاي برضه!؟"

(نبيل): "فاكر لما وصّلتك لشغلانة الكافيه؟؟"

(سعيد) متذكّرا: "آه قصدك شغلانة المطعم اللي متطرّف ده... اللي اشترط وا عليّا إني أبات هناك في السكن؟"

(نبيل): "أيوة.. اللي برضه واحدة خلّتك تتطرد منها... لما مسكوك بتتسحّب عند أوضتها في سكن البنات"

(سعيد): "على فكرة محصلش الكلام ده! همّا اللي لفّقولي القصة دي عشان يمشّوني أنا معملتش حاجة... مش عارف ليه استقصدوني!"

(نبيل): "هي دي مشكلتك.. عليك مواقف زبالة بتخليهم يفتكروك مش طبيعي، ولبسك القديم ده.. طبيعي لازم يمشوك"

(سعيد) متضايقًا: "خلينا في موضوعنا"

(نبيل) وكأنه لا يبالي: "بس يا عم... الشرطة جت وعرفت إنك مسافر من (الست هدايا العايئة) اللي ساكنة قدامك، اللي بتحبّك دي، وهو ده اللي بعد الشبهة عنك... بكل بساطة"

(سعيد): "وانت!؟ محدّش سألك!؟"

(نبيل): "أنا يسألوني ليه!؟ مانا بعد وصّلتك سافرت برضه.. أول ما طردوك من الشغل جيت من السفر خدتك ورجعنا مع بعض"

(سعيد): "آه نسيت... وبعدين؟؟"

(نبيل): "الموضوع مخادش وقت.. في الآخر لبسها ابن أخوه عشان كان هدده من يومين... عشان حوار ف العيلة كده... وحق ومش حق دخل ضربه وهو نايم على دماغه والراجل ساح في دمّه ومات... ولغاية دلوقتي مش متأكدين إن هو.. الواد كان بينكر بس الناس شهدت إنه هدده، والتحقيقات كانت شغّالة، بس الواد فجأة وهو قاعد مستنّي يدخل يتحقق معاه، تعب فنقلوه على المستشفى، وهو محجوز هناك قعد يصرّخ، افتكروه اتجنن، كان بيقول إنه شايف مخلف قدّامه، وقعد يقوله: " قلّهم إني معملتش حاجة قلّهم"، وطب ساكت فجأة من غير ما حد يلمسه.. الدكاترة ما لحقتش حتى تشيّك عليه.. هو الحي ده هجروه من شوية يا (سعيد)!؟"

(سعيد) حزينًا: "يااااه! كل ده وأنا معرفش!!؟"

(نبيل): "وانت فيه حد بيكلّمك!؟ ولّا انت بتكلم حد يا (سعيد)!؟ بس بجد انت خبطتني وانت طاير تقريبا كنت هقطع منك الخَلَفْ!"

(سعيد): "أومال أنا بأة أعمل إيه!؟"

حاول (سعيد) أن يبعد فكرة شبح (البواب) بشدة، وفكّر لعلها كوابِيس وقد تجسّدت صادرة من عقله، وهناك في أعماقه ما يُقيَد بقاءه بتلك الشقة، وأن يبعد خوفه وتطغى الشجاعة على شخصيته، وكأنه تحصن من كثرة الكوابيس التي تنهم نومته الهنيئة؛ فقال ليغيّر الموضوع: "احكيلي عملت إيه مع صاحبتك وأنا هحكيلك قابلت مين النهاردة"

(نبيل) ملمّحًا: "والشغل يا حبيبي.. مش هتحكيلي قالولك في إيه!؟"

تناول (سعيد) هاتفه، ونظر في ساعته التي اقتربت من الثامنة: "هحْكيلك يا صاحبي"

*****

(نبيل): "ياااااه! (حفيدة الشيخة فرح)... نهارك أبيض! دي ممكن تكون وارثة سرها الباتع... مش بقولك ابن محظوظة"

(سعيد): "يا عم مفيش الكلام ده"

(نبيل) ساخرًا: "لأ فيه.. ده انت شفت شبح من ساعة.. هي عَدَتَكْ باين!"

(سعيد) متوترًا: "ما تهدى يا (نبيل) شوية.. انت مصمم يعني!؟

مفيش هزار في الحاجات دي"

(نبيل): "خلاص خلاص... هي مزة؟"

سعيد وقد خف توتره، سارحًا ببصره لغرض ثابت ليتذكرها: "مزة.. النوع اللي يعجبك"

(نبيل) وهى يشير إلى النافذة: "آه.. ما انت النوع اللي يعجبك ساكن قصادك"

(سعيد) بملامح غاضبة: "(نبيل).. خف بأة من الحوار ده وشيله من دماغك"

(نبيل) متضايقًا: "طيب يا (سعيد) حقّك!"

اتجه (سعيد) إلى دورة المياه متمتمًا بصوت عال: "ساعات كلامك بيزعّل.. بس برضه.. بس للأسف ملناش غير بعض..."

(نبيل) مستهزئًا: "ملكش غير (هدايا) و(لمياء) دلوقتي يا خفيف الضل... الضل الاسود بتاع الشجرة هه!؟"

(سعيد): "مش هرد.. اعمل حسابك انك هتـ...."

(نبيل): "هوصّلك عارف.. اتنيل انت بس البس الساعة قربت على تسعة"

تنهد (سعيد) متضايقا من غيرة (نبيل)، على ثقة أنها نابعة من الحب رغم ردوده المستفزة، فرد مستسلما: "طيب"

*****

راقبت (لمياء) (سعيد) عن كثب، وهو يقترب بسرعة من الفيلا ليطرق الباب، ويسعل من كثرة الأتربة.

في تلك اللحظة أرادت أن تتقدم نحوه، لكنها آثرت التراجع، لتشاهده وهي عابسة، وقد ارتسم الإحباط بأنحاء وجهها.

فُتح الباب ودلف (سعيد)، ثم نظرت خلفها، لترى (شخصا) يرتدي جلبابا رماديا، وقد انشقت رأسه نصفين تحت العمامة، وتنبثق منها الدماء لتنقش على الجلباب بقعا حمراء، وهو يشير ناحية الفيلا.

لم تهتز لها شعرة واحدة؛ فهي كالمعتاد ترى الأشباح، لكن أول مرة تراها وهي تتواصل معها.

تفهمت أن (الشبح) يحذّرها من الفيلا، أو من بداخلها... فشَعرتْ بالقلق على سعيد، لكن ما باليد حيلة.

وفجأة اختفى هذا (الشبح)، لتظهر سيدة مرّ عليها زمن كبير جدا، وطغت عليها شيخوختها، تميزها تجاعيد وجهها البارزة، وملابسها الرثة، تتكأ على عصا من الخيزران، ونادت على (لمياء)، لتلتفت إليها وقد ظهرت عليها آثار الفزع، وكأنها توقعت تلك الزيارة، وهي تحرك شفتيها: "ستّي (فَرْح)!!"

*****

بينما ينظر (سعيد) إلى المانيكان الغريب بوسط البهو، وركز جيدا في مشهده البشع، لرجل ذي وحمة على خده الأيمن،

وجرح قد صُنع باحترافية كالحقيقي يمر من خلالها، وهو يدور حول نفسه؛ إلا بـ(الجد قدري) وهو يقول بصرامة: "إزيك يا (سعيد)؟"

انتبه (سعيد): "كويس!!"

أشار (الجد) له بالدخول والجلوس، ثم جلس أمامه وقال: "أنا هابقى في المخزن هكمّل شغلي تحت، وأنت شوف بأة هتعمل إيه... (داليا) صاحية وسألت عليك"

أحس (سعيد) بالفرحة لنجاحه في التأثير على (داليا) ليلة أمس، ثُمّ همّ بالوقوف، لكن (الجد) كان أسرع منه إذ استوقفه بذراعه، فأحس بالقلق وخاف أن ينظر له، واكتفى بالاستماع إلى تلك اللهجة التحذيرية عندما قال ببرود ثلجي رهيب وسعيد متوقع تلك العبارة: "إيّاك تسألها عن اللي حصل الصبح.. عشان لو سألتها.. هعرَفْ!"

أومأ له (سعيد) وقد اعتراه الإحباط لتفاقم الأمور من هذا التحذير، لكان أول ما سيفعله هو سؤال (الطفلة) عن صراخها بالصباح، وعلى أمل أن تتحدث من تلقاء نفسها بحكم براءتها، وتكشف له السبب.

راقب (سعيد) (الجد) وهو يمشي في اتجاه المخزن، وبدأ في الصعود مقتربا إلى غرفة (داليا)، وهو يسمع همسها مع (الدمية) بهمسات مبهمة، فدفع الباب بهدوء وسط الإضاءة الخافتة، فشاهد (فتاة أخرى) تقترب في السن من (داليا).

تساءل (سعيد): "مقاليش إن فيه بنت صاحبتها هنا!!"

ابتسم للـ(فتاة) التي بادلته الابتسامة، متسائلًا: "إزّيك يا أمّورة.. أومال داليا فين؟؟؟"

اختفت ابتسامة (البنت) وهي تفجّر في وجهه ردها: "أنا (داليا) يا (عمو سعيد)!"

(سعيد): "داليا مين!؟؟ آه اسمك داليا برضه!؟"

(داليا): "لأ يا عمو أنا (داليا) اللي كنت معاك امبارح "

وبدأت تسْتَدِلْ بأحداث الليلة السابقة.

أحس بصوت (الفتاة) وهو يذوب، عندما أصابه الذهول، ثم دقق في ملامحها مقارنًا بملامحها بالأمس؛ وجه مختلف، ببشرة مختلفة، ولون عين مختلف، وصوت مختلف، لكن طريقة التحدث تلك هي ذاتها لم تتغير... ذات الروح... ذات التصرفات!!

أحس (سعيد) بالصداع المعتاد الذي تغلغل داخل رأسه، ليجلس على الأريكة ويمسكها بكفيه، ينتظر قفزات ذلك الألم الرهيب من غشاء إلى غشاء وصولا لمخه، وفي لحظة، عاد صوت الطفلة إليه متجمعًا: "مالك يا (عمو سعيد)... انت تعبان!؟"

بهتت بشرة (سعيد) وابيضّتْ شفاهه، وكأنه أصيب بهبوط حاد، ناظرًا إلى (داليا) التي تراقبه بقلق، وبصوت واهن أجاب: "لأ مفيش يا حبيبتي منمتش كويس بس... بس أنا بقيت حلو"

(داليا) وقد عادت لها الفرحة والابتسامة: "طيّب هنلعب إيه النهاردة؟؟"

لا يدر لماذا قفزَت تلك الفكرةِ إلى عقله، وبتلقائية أخرج هاتفه وهو يقول: " هنلعب باللي تحبيه يا (داليا)... بس الأول...."

ثم ضغطِ على زِر التصوير بتطبيق الكاميرا:

كليييك....

و(داليا) تبتسم بلا مبالاة بتلك الملامح المتغيرة، كأنها مستعدة بوضعية للتصوير.

*****

صرخت (لمياء) بشوق إلى (جدّتها): "وحشتيني!"

وهمت لتحتضنها، لكنها مرت من خلالها وكأن (لمياء) شكّت للحظة أنها على قيد الحياة، لكنها قد وافتها المنيّة منذ زمن بعيد....

وبصوت مبحوح ومؤثر: "جيت عشان المصيبة اللي انتي عملتيها..."

(لمياء) بوهن: "عارفة أنا آسفة"

(فرح): "عارفة اللي بيعمل اللي انتي عملتيه مصيره إيه؟؟"

(لمياء): "عارفة... إني هتعاقب"

(فرح): "أنا عارفاكي فضولية... كان دورك تتابعي من بعيد"، ثم نظرت إلى الأرض وأكملت: "بس كنت خايفة اليوم ده يحصل... وأهو حصل"

دمعت عينا (لمياء) ندمًا: "أنا حسّيت بحاجة من ناحيته... غصب عنّى"

صاحت (الشيخة) غضبًا: "قصدك حبّيته!؟ ومن إمتى (المرسال) بيحب!!؟... دورك (كمرسالة) انتي عارفاه، ملكيش إنك تتدخلي وتتحكمي في مصير حد.. دورك هو تقري وترتبي المدونات اللي بيكتبها (المدون) جوّة قَبّري.. انتي خالفتي قوانين (المكنون) ودخّلتي نفسك في عقدة حلها صعب... أنا مش هعرف أساعدك في كل حاجة يا (لمياء)"

لمياء وهي ترتعد من حديث جدتها: "طب أعمل إيه!؟"

(الجدة) وهي في حيرة وكأنها تستمع إلى الصمت، ثم رفعت رأسها وملامحها تبهت شيئا فشيئا: "ملهاش حل تاني يا بنتي... غير إنك هتقابلي مصيرك وتتعاقبي.. انتي غصبتي نفسك إنك تبقي واحدة منهم، طرف في قصتهم"

(لمياء) وقد شل لسانها: "...."

صرخت (الجدة) لدرجة أفزعتها: "هتغوّطي جوة (المكنون).. هتبقي زي (المدونّن)"

(لمياء) متذكرة معاناة (المدونة العجوز) وفي خوف: "لأ!

متخليهُمش يعملوا كده!!"

اختفت الجدة وتبقى صوتها: "انتي اللي خالفتي القوانين"

صرخت (لمياء): "حرام عليكي يا (تيتا)! أنا حبِّيته!"... ثم أكملت ببكاء حار وبحرقة كمن تتحدث إلى نفسها: "حرام عليكي ساعديني أرجوكي!"

أدركت (لمياء) حينها أنه برغم استطاعتها رؤية الأطياف والأشباح بلا خوف، إلا أن ظهور جدتها رج قلبها بعنف من الرعب؛ فأمامها عقاب لا تدري متى سينفَّذ وإلى أين سيأخذها.

*****

تأمّل (سعيد) صورة (داليا) بدقة حتى يتأكد من كفاءتها ووضوحها، فإذا بـ(نبيل) يهاتفه، فرد عليه بصوت ضعيف: "أيوة يا (نبيل) عايز إيه!؟"

(نبيل): "إيه اللي عايز إيه!!؟ بتطمن عليك! ما انت زعلت امبارح عشان معبرتكش! وأهو قلت أكلمك بأة"

أراد (سعيد) أن يغلق بسرعة؛ فهو لا يحتمل الحديث الآن فقال: "تشكر يا صاحبي.. بس مضطر أقفل دلوقتي... هـأنيِّم البنت وهكلّمك"

نفخ (نبيل): "خليك كده اسحب نفسك مني وانت عارف أخرتها... بلاش يا (سعيد)!"

تراجع (سعيد) في لهجته: "خلاص بأة متزعلش.. معلش يا (نبيل).. تعرف تجيلي الصبح بكرة؟"

(نبيل): "هحاول"، ثم استفز (سعيد) مكملًا: "ولا ترجع مواصلات مع (لمياء)؟ أو تخلي هدايا تجـــ......

أغلق (سعيد) في وجه (نبيل) لأول مرة، يستشيط منه غضبَا، يفكر لماذا يستمر في إغاظته بتلك الأرملة، والتي دائما يشعر تجاهها بالنشوة وغليان المشاعر!؟ فهو يعشقها رغم تأكده أنها تكبره بسنوات، إلا أنها تحتفظ بجمال غير طبيعي آخّاذ.. دائما تلمّح له بهذا الإعجاب، ودائما يتمنى الزواج منها، لكن (نبيل) لا يترك له الفرصة، بتشجيعه على إنشاء علاقة محرمة معها، شأنها شأن سائر الساقطات! اللاتي يعرفهن!"

تذكر مرة نبيل وهو يثيره بها ذات يوم، ليلمّح بطمعه فيها مستغلا إقدام سعيد عليها كواسطة. إذن تلك نيته! يطمع في جسدها!

غضب (سعيد) جدا من سوء نية (نبيل)، وقرر أن يضع له الحدود بشأن (محبوبته هدايا)، وفي حياته التي دوما يتدخل فيها.

أفاق من أفكاره، ثم أدار رأسه ناحية الكرسي المهتز ليتحدث مع (داليا): "يلا يا (داليا)؟؟ داليا... داليا!!!!!"

لم يجد (داليا)، بل وجد (دميتها) وهي تميل بجزعها على الكرسي الهزاز، وهي تنظر له مبتسمة كالعادة.

بحث ببصره وقد دبت به رجفة، وهو ينادي بصوت مهتز: "(داليا)!" ثم استمع لصوت باب المخزن وهو يُفتح.

حاول أن ينفي ما ظنه لكنّه حدث؛ فقد استجاب الجد لطرقات حفيدته والطرد قادم لا محالة!

*****

(قدري): "خير يا (داليا)... (عمّك سعيد) فين؟"

اندهش (سعيد) فور اقترابه من عدم إبداء (الجد) لأي رد فعل من تغيير شكلها، وابتعاد (الطفلة) عنه فور رؤيته، فالموقف متبدل، ثم أسرع وهو يتأسّف بشدة، مشيراً له بأنه كان يلعب معها لكنها هربت منه غفلة وطرقت باب المخزن، وأمسك يديها ليسحبها مربتاً على كتفها برفق.

أومأ له (الجد) مشيرا لهما لأعلى.

لاحظ (سعيد) أن (الجد) يرتدي عباءة سوداء تعتليها قلنسوة، مكتوبا عليها حروف ليست بالعربية، يبدو أنها طلاسم غامقة اللون تتغير بتغير حركته، وكأن الإضاءة تلعب في إظهارها دورا أساسيا.

ثم صاح: "(سعيد)!"

ابتلع (سعيد) ريقه وهو ينظر.

وبصوت مرعب وغليظ: "متتكررش تاني!"

أومأ له (سعيد) مبتسمًا ابتسامة صفراء، وقد ذاب بداخله هاجس الطرد وتنهد ارتياحا، ثم فكر في هذا الموقف الطارئ، وتناقض ردود الأفعال ما بين (الجد) و(الحفيدة)!

أراد مساحة من التفكير، فاقترح على (داليا) قراءة قصة من قصصها لتنام على الفور دون مشاكل، في ذات الوقت استقبل من نبيل رسالة نصية تقول: "القميص يجنن... هدايا تناديك"

رغم تعصبه من تلك الرسالة إلا أنها أثارته، فعقد العزم بالتحدث إلى (هدايا)، التي طالما أحس بالشوق نحوها على يقين بأن الإحساس متبادل.

عقب نوم (داليا)، أراح جسده على الأريكة وأغمض عينيه متمتمًا من أعماق صدره: "هدايا" متخيلا صورتها أمامه، وهو يعلم تمامًا أن نومته لن تهنأ كالعادة. وكان ما علم؛ إذ صدرت رجة خفيفة أسقطت (الدمية) من الكرسي الهزاز أمامه، ليقفز من مكانه فزعًا!

ثم نظر إلى (داليا) التي تَنام كالملاك ليطمئن عليها، ثم حاول معرفة مصدر تلك الرجة، فتوقع أنها من أسفل.

*****

أغلق (الجد) باب المخزن وأوصده بترباسه الداخلي، ثم تقدم ناحية باب حجري منحوت عليه عبارات من ذات الحروف التي تزين عباءته، يخرج منها حبال مخملية غليظة مربوطة بكل ركن بالمخزن، ثم دفع ذلك الباب ثابتا في مكانه، ثم نظر خلفه

للحظة ليتأكد من تثبيت الحبال، وتقدم إلى ما وراء ذلك الباب، ليستمع إلى صرخات النجدة والاستغاثة وهو لا يبالي لها، ثم ابتلعه الباب وأغلق خلفه بقوة، محدثا رجّة فظيعة هزّت أرجاء الفيلا، ومازالت الحبال تمر أسفله... ويطبق الصمت بالمكان.

*****

عادت (لمياء) إلى قبر (جدتها)، ثم نظرت إلى النافذة المقابلة له، والتي عبرها تتواجد (العجوز) الغامضة؛ وهي تدرك تماما أنها المتحكمة في ما يحدث في معضلتها، وأن الحل بيديها. فأسرعت نحو النافذة لتفتحها بهدوء، فوجدتها تكتب في عصبية والدماء من حولها تتزايد، وهناك من الصفحات أمامها في متناول يدها، فنادت بقوة على (العجوز) ذات الأنابيب لعلها تنجيها من تلك العقوبة: "لو سمحتي...."

وكأنها لا تسمعها، لكنها أحست بتوترها.

كررت بصوت أعلى: "لو سمحتي... أرجوكي ردى عليا"

بدأت (العجوز) في التوتر أكثر مرة أخرى، وقد تبينت أنها لا تستطيع الكتابة، فانتزعت (الورقة) من الآلة الكاتبة بعنف، وكرمشتها واتجهت صوب لمياء وعيناها تحترقان، وألقت بالورقة خارج النافذة في وجهها، وعادت مكانها لتثبت ورقة أخرى، وبدأت تكتب من جديد.

أحست (لمياء) بذرّة من الأمل، فالتقطت الورقة الملقاة وفتحتها

لتنظر في سطورها المتلعثمة وغير المنتظمة، وقرأت بأنها ستعاقب وستصبح مدونة عن قريب!

دمعت عيناها رعبا وأصيبت بالإحباط، ونظرت إلى النافذة لتترجاها، لكنها فجأة رأتها تقف ماثلة أمامها من وراء النافذة، وهي تجز على أسنانها وتنزف الدماء من فمها، وتمد يدها لها، ولأول مرة تتحدث بصوت فاق كل تخيلاتها، وأسقط قلبها في أعماق سحيقة من الرعب: "هتحرريني.. وهتفكّي ربطتي باللي عملتيه.. قريب هفْتحلك بابي"

سقطت (لمياء) مغشيّاً عليها إثر تلك العبارة، وقد أحست للمرة الثانية بعد حوارها مع جدتها بأن الخوف قد تملكها!!

****

(٣)

نفوس قد أينعت

نظرت (لمياء) إلى الفراغ وهي تدرك أنها الآن تحلم؛ فهي تدرك أنها إحدى الوسائل للتواصل مع جدتها، فلم تتردد لتناديها، وعلى الفور ظهرت لها جدتها بذات الهيئة السابقة.

صرخت (لمياء): "يا (تيتا) ساعديني!"

عبست (الجدة)، ولم تنطق بكلمة، ثم تنهدت: "هفهّمك كل حاجة... دي فرصتك الأخيرة!"

وفجأة اختفت (الجدة) واشتد الظلام لتستحيل الرؤية، حتى (لمياء) لم تستطع أن ترى كف يدها عندما رفعته أمامها، ثم لاح أمامها ضوء طفيف، وصوت (جدتها) يخاطبها: "تفتكري يا (لمياء) أنا كنت بعرف كل حاجة عن الناس إزّاى؟"

(لمياء): "معرفش!"

(الجدة): "(المكنون) اختارك (مرسالة) لهدف... (مرسالة) ليّا قبل ما أموت. (المدوّن) هنا بيشوف كل حاجة بتحصل للناس وبيكتبها في ورق، وانتي أو اللي قبليكي كان فاهم دوره كـ(مرسال) يرتّب الورق ده بترتيب الأحداث ويجيبهولي، دوري أنا إني كنت بعرف كل حاجة عن الناس وابتدي أحل مشاكلهم"

تفهمت (لمياء): "طب ليه يا (تيتا) (المكنون) اختارني!؟"

(الجدة): "عشان اللي زيّك جوّاه نفس بريئة وطاهرة هيخاف يتدخل في قدر حد.. المسموح لهم ناس معينة أنا منهم وبمقادير"

(لمياء): "طيب انتي دلوقتي..."

قاطعتها (الجدّة): "عاوزة تقولي ميتة صح؟ وليه لسة بتودّيلي الورق!؟ دي أسئلة مش هقدر أجاوبها... كل اللي مفروض تعرفيه إن مش مسموحلك إنك تتدخلي في قدر حد عشان تغيريه، لو خالفتي القاعدة دي هتبقي (مدونة للمكنون).. هتستني (مرسال) ليكي يغلط عشان يحل محلك!"، ثم صمتت وأكملت: "فاكرة يوم ما نبهتك من الكلام ده قبل كده؟"

تذكرت (لمياء)، وأحست بأنها ارتكبت خطأً فادحًا رغم علمها بالقواعد.

لكن لم تفهم (لمياء) ما الهدف من اختيار (المكنون) للمراسيل من ذوات النفوس الطيبة؛ وكأن الجدة قرأت أفكارها قالت: "كل نفس عايشة هنا فاسدة وأمارة بالسوء، ما عدا اللي زيك.. (المكنون) بيحطهم تحت ضغط عشان يتغيروا للأسوأ وبيعاقبهم!"

لم تنطق (لمياء)، لكنها أدركت من جدتها في النهاية أنه ما كان لها الاقتراب من (سعيد)؛ لأن كل من يعيش بالـ(مكنون) نفوس قبيحة، وبعد تدخّلها هي الأخرى قد لوثت نفسها كالبقية بعد أن كانت نقية، وستعاقَب عقابًا ليس بيسير لتدخّلها في مصيره،

ولتعديها حدود دورها وما كُلِّفَت به! فصرخت (لمياء) بشيء من الندم والاعتراض: "طب أعمل إيه!؟"

الجدة: "اسمعي الكلام ده كويس وافتكريه: (المدوّن) هو (المرسال اللي لوث نفسه بنفسه)، ساعتها بيبص على كل النفوس الشريرة اللي عايشة في المكنون لمجرد العقاب ويكتب عنها.. إنك تشوفي مصايب الدنيا من غير ما تتحكمي فيها ده في حد ذاته عقاب نفسي"

(لمياء) وقد نبض قلبها لـ(سعيد): "بس (سعيد) كويّس وفي خطر يا (تيتا).. كان لازم أحذره"

صرخت (الجدة) بغضب شديد: "متعترضيش على مصير حد حتى لو مظلوم.. انتي ماتعرفيش حاجة! زي ما قلتلك دي فرصتك الأخيرة" ثم أنهت (جدتها) آمرةً بصرخة قوية: "روحي ناحية النور!"

بينما تصرخ الجدّة انطلقت (لمياء) رغما عنها مسرعة، لا تدري هل هي تطير أم تجري على قدميها فهي لا تسمع صوت خطواتها، إلى أن وصلت للضوء.

*****

شهقت (لمياء) فزعًا إذ استيقظت من صرخة جدتها، وأحست بذلك الخدل الذي يعتري جسدها، وكأنها للحظة شلت من جميع الأطراف.

إلى أن ذهب ذلك الإحساس، وتبدل بألم شائك. تحاول ألا

تتحرك وتنتظر زواله هو الآخر، وبينما هي تنتظر راجعت الحلم، وتذكرت كل ركن وكل لحظة فيه، ثم نظرت حولها لترى نفسها ومازالت في القبور، وقد بدأ النهار يبزغ، لكن الضباب هنا يزداد حول حجرة (العجوز المدونة)، ثم نهضت بعد فترة عندما استعادت حركتها، وقد استنتجت أن نفسها قد تلوثت، وقد تسيطر عليها وتوسوس لها.

ودورها الآن هو أن تسير عكس ما تهوى نفسها، وبالتالي لابد أن تسيطر عليها، وأن تبتعد قدر الإمكان عن (سعيد)، لعلها تنأى عن العقاب آملة ذلك، الأمر الذي اعتبرته صعباً للغاية لأنها أحبته، فلم يطل الأمر فالنفس أقوي؛ إذ وسوست لها بشأن ما قرأته في صفحات (العجوز المدونة) منذ البداية، ففكرت في:

★ حب (سعيد) لجارته الأرملة (هدايا)، التي يبدو أنها تغويه لشهوتها المكبوتة ولمتعة جسدها فقط، ولم يمنع ذلك (لمياء) من الشعور بدفء الحديث معه؛ فالحب لا سن له ولا مكان ولا وقت ولا يشترط حب الطرفان... وأحست بالخطر عليه وخشت أن يلاحقه مصير سيئ من هذه المرأة.

★ كما أحسّت أن تصرفات (الجد الخبيث قدري) معه غريبة وسيئة، يغريه بماله، و إن لهذا الشاب أن يستحق ظروفًا ووظيفة أفضل من ذلك، وفكرت في عشقه لـ(داليا) الطفلة البريئة كابنته، والتي تبادله ذات الإحساس.

★ أما (نبيل)، فترى أنه الصديق المقرّب لـ(سعيد) الذي لا يفارقه، وظروفه غامضة بعض الشيء، وغيرته على (سعيد) من الوظيفة، ومن تقرب (لمياء) و(هدايا) له، وتوجيه (سعيد) الدائم نحو ارتكاب الخطأ وللفساد.

كلها نفوس قد أينعت في حياة (سعيد)، تحيط به وقد تودي بحياته نحو الخطر والهلاك!

ذرفت (لمياء) الدمع على ما أقحمت نفسها فيه، فوجدت نفسها في النهاية غير مبالية بنصيحة (الجدة)، مُجبرة بأنه لابد فعلا من تحذيره من هؤلاء الثلاثة.. لكن كيف!؟

وتأكدت أن عقابها سيهرع إليها قبل ميعاده لهذا العناد، ومبررها الوحيد أنه: لا بأس من التضحية من أجل إنقاذ حبيبها (سعيد القمّاش).

*****

استيقظ (سعيد) من نومته غير الهنيئة كالعادة على صوت المنبه، وقد راودته كوابيس تشعل الرأس شيبا، لم يعد يحتملها أو يسيطر عليها.

اتصل على الفور بـ(نبيل)، الذي لم يجبه كالعادة... نظر إلى ساعته فوجدها اقتربت من العاشرة صباحا.

لم يكد ينهض إلا و(الجد) الغامض يدخل الحجرة مناديًا عليه: "(سعيد)!"

انطلق (سعيد) مسرعًا نحو (الجد).

يشعر فور نهضته بكسور في جسده كمن سقط من الأعالي وارتطم بالأرض، لكنه تحامل على نفسه خشية ضياع الوظيفة، ثم استأذن لدورة المياه فسمح له (الجد) بدخولها بالأسفل.

*****

نظر (سعيد) إلى عينيه الحمراوتين كالدماء يحك في شعر رأسه، وفتح الصنبور ليغسل وجهه، فشاهد خصل شعر قد سقطت إثر الحكة، وآثار لزوجة غريبة برأسه نتيجة العرق!

فزع (سعيد) من سقوط تلك الشعيرات، فدس رأسه أسفل الصنبور، وإذا برأسه تتساقط منها بقايا من الشعر!

ارتعد خوفا من إصابته بمرض ما يسبب هذا التساقط الطفيف، وقد يكون نتيجة خوفه من كوابيسه التي تدفع به إلى الجنون. لملم الشعر من الحوض خشية أن يسده، وألقى به في المرحاض وأفرغ السيفون عليه، وراقبه وهو يلف في دوامة وينسحب من أمام نظره إلى المجاري... ثم فتح الباب، فشاهد (الجد) أمامه يتساءل عن منظره الذي يبدو كمن غرق في حوض الاستحمام؛ فالمياه تغمر رأسه وكتفيه.

ابتسم (سعيد) معتذرا: "آسف غصب عني كنت عايز أفوق.. حضرتك تؤمرني بحاجة؟"

(الجد قدري): "لأ شكرا يا (سعيد).. ميعادنا بكرة"

(سعيد): "ماشي هستأذنك"

أومأ له الجد للمغادرة.

فتح (سعيد) الباب، وضوء الشمس كالعادة يغمره ويجفف ما غمِرته الماء منه، لكن عينيه لا تقويان على النظر إليها كمن لم يرَ الضوء منذ فترة، ثم أغلق الباب خلفه وترك ساحة الفيلا مترجلًا نحو موقف السيارات، عندما استوقفه هذا النداء الناعم: "(سعيد)"

التفت (سعيد) نحو مصدر هذا الصوت: "(هدايا)!!؟"

نظر (سعيد) إلى منظره الرث، وعدل من هندامه، واتجه إلى (هدايا) القابعة بالسيارة.

حملقت (هدايا) في (سعيد) متعجبة تارة، وإلى الفيلا تارة أخرى: "انت كويس!؟ انت بتعمل إيه هنا!؟"

تلعثم (سعيد) في حيرة: "آه كويس.. باشتغل هنا..!"

نظرت (هدايا) إلى السائق الخاص التي استأجرته وقالت: "استناني لحظة يا أسطى"

(السائق): "أوامرك يا (مدام)"

ثم ترجلت من السيارة.

أحس (سعيد) برعشة تسري من قلبه النابض، وهي تسرع إلى جميع أطراف جسده، لمشاهدة (هدايا) بتلك العباءة السوداء

النارية التي تم تفصيلها على جسدها باحترافية شديدة.

ثم صافحته واقتربت منه سائلة: "انت بجد كويس؟؟ أول ما وصلتني رسالتك الفجر دوّرت على عربية وجيت أجيبك"

(سعيد) حائراَ: "رسالتي!؟ رسالة إيه!؟"

تأملت (هدايا) (سعيد) باستغراب، وقد اعتبرته كشخص ضربته الشمس فلم يعد يتذكر شيئا: "(سعيد).. انت بعتلي الفجر رسالة من رقم غريب بتقول فيها إني وحشتك وإنك عاوزني أجيلك في المكان ده عشان أجيبك الساعة عشرة عشان صاحبك مش هييجي... وكتبت في الآخر "وحشتيني يا (هدهد)"... قلت ده واحد بيهزّر، بس قلقت برضه وقلت لو كنت فعلا اللي باعتها أكيد هتاخد على خاطرك مني، وانت عارف خاطرك غالي عليَا إزاي.. وإنك أخيرا افتكرتني"، ثم تنهدت بفرحة مكملة: "وقلت لنفسي أخيرا الحجر نطق"

تدارك (سعيد) الأمر، فتحدث مع نفسه: "آه يا (نبيل) الكلب! عملتها فيَا وباعت رسالة باسمي!!؟ بس جت بمصلحة"

ثم ابتسم لها بحنان وهو يمثل أنه تذكر: "تصدقي فعلا!؟ بس بعتّهالِك وأنا نايم فمركزتش أوي ومخدتش بالي إنها وصلتك!"

(هدايا): "مخدتش بالك!!؟"

(سعيد) كاذباً: "آه.. أصارحك بالحق يا (هدايا).. أنا اترددت كتير إني أبعتهالك.. بس حسيت بحاجة من جوّايا إني عاوز فعلا

أشوفك"

(هدايا) وهي تضحك بدلع ذابت له الأعصاب: "يااااه! أخيراََ اتكلمت وحسيت يا (سعيد)!؟ تعالى اركب عندي ليك كلام كتير عاوزة أقولهولك من زمان"

أومأ (سعيد) لها متجها للسيارة فاتحا لها الباب.

(هدايا): "بَكّاش كمان!؟"

(سعيد): "على أدي.. دانا غلبان"

(هدايا) هامسة: "طيب انت النهاردة معزوم عندي.. عاوزة بجد أصارحك بكلام كتير"

(سعيد) بثقة منتهزا الفرصة: "حاسس بيكي يا (هدايا)، وبصراحة عندي ليكي برضه كلام كتير"

تلمّست (هدايا) يد (سعيد)، والذي أحس بفوران الكون من حوله، وأن كينونته كرجل تعود له شيئا فشيئا.. لم يتوقع أن (هدايا) كانت رهن إشارته.

أمّا (هدايا)، تفكر في الارتباط بـ(سعيد) بعلاقة أيّا كان شكلها، وكذلك يفكر (سعيد) بها. ليس لهما ثالث يعكر صفوهما، اليوم وكل يوم، وليتوقفا عن الحملقة اليومية في وجهي بعضيهما من البلكون والنوافذ، وكأنهما يتراسلان بالخواطر.

تشاهد هذا الموقف برمته (لمياء)، التي انفجرت باكية وهي

تقول: "بعد اللي عملته عشانه يضيع من إيدي كده!!؟؟"

ثم ضغطت على أسنانها: "لازم أحذره منها بأسرع وقت! لازم يسيبها حالا!"

*****

رن هاتف (سعيد) في وضع الصامت، و(هدايا) لم تلمح أن هناك اتصال؛ فكل تفكيرها الآن كيف سترتب كلامها لـ(سعيد)، الذي نظر للهاتف ولم يبدي أي رد فعل، ولأول مرة ينظر لنافذة السيارة ويبتسم ابتسامة رضا.

وبدأ يفكر كما تقول الأساطير، أن الكوابيس ما إلا أحداث سعيدة ستتحقق، ثم جاءت له الجرأة وضغط على يد هدايا بقوة خشية أن تضيع منه... بعد أن وجدها.

*****

دخلت السيارة إلى ذلك الحي الفقير الذي أصبح مهجورا، وتوقفت أمام المبنيين المتقابلين.

(السائق): "حمد لله على السلامة يا (مدام)"

(هدايا): "الله يسلمك يا أسطى.. حسابك كام؟"

(السائق): "اللي تقدّريه يا (مدام)..."

أحس (سعيد) بالإحراج.. "(مدام)(مدام)(مدام)"!! يظن (الرجل) أنها (زوجته)، ومن المفترض أن يسأله عن السعر لا

هي، لذا بادر بإحراجه: "عيب يا أسطى مفروض تسألني أنا.. كام بأة؟؟"

نفخ (السائق): "لا مؤاخذة.. يعنى مصممين برضه!؟ طب ٦٠ جنيه بس عشان خاطركم"

أوقف (سعيد) يد (هدايا) العابثة بحقيبتها بحثا عن النقود، وقام بدفع المبلغ للسائق من جيبه، ثم ترجل (الاثنان) وصعدا إلى شقة (هدايا)، التي انتشرت بها رائحة البخور، والتي داعبت شعيرات أنفه لتتراقص بالداخل من الفرحة، وكأن (هدايا) عطّرت شقتها احتفالا بتشريف (سعيد) حبيب القلب.

تساءلت (هدايا): "تفطر طبعا"

أومأ لها (سعيد).

نزلت (هدايا) بصينية ممتلئة بخيرات وجبة الإفطار، لينهماها مبتسمين، ثم أعدت هدايا المشروب، وبدأ سيل الاعترافات والمصارحات بينهما.

*****

نظر (سعيد) إلى الأرض قائلا: "بس أنا أصغر منك في السن... يا (هدايا)"

(هدايا): "بس كبير من جوة يا (سعيد)"

ثم نظرت إلى لوحة مقلوبة على الحائط: "من يوم ما (جوزي)

مات وأنا بصراحة عيني بقت عليك أكتر.. عاجباني قعدتك في البيت، خروجاتك مش كتير.. حاجات كتير بتشدّني ليك مش عارفة أقولها.. تقدر تقول كلك على بعضك حتة واحدة عاجبني"

(سعيد) يستهويه هذا المدح، وهو يحاول أن يسيطر على نفسه: "والله يا (هدايا) أنا زيك بالضبط.. كنت بصراحة بشوفك من البلكونة بحس إن بينا حاجة"

"(الوحيد) اللي حكيتله الموضوع ده صاحبي (نبيل)، وكذا مرة يعرض عليا إني أصارحك، بس مجتليش الجرأة غير الفجرية!"

(هدايا): "صاحبك مين!؟ أنا مشفتش حد عندك قبل كده"

(سعيد): "ما هو بيجيلي بالليل دايمًا، وكتير أوي بيسهر عندي لوقت متأخر"

(هدايا) كمن تذكرت: "آاااه افتكرت شفته.. بشنب هو صح؟ على فكرة مش بستريّحله"

(سعيد) وكأنه لم يسمع: "آه ده حبيبي.. نفسي أعرفك عليه"

(هدايا) متعجبة من سلبيته وبغضب: "طب خلينا في موضوعنا.. انت سرحت لبعيد هه.."

(سعيد): "آسف مالك كده قلبتي!؟"

(هدايا): "أصلي مبستريحلوش من يوم ما مات (البواب) اللي في

عمارتكم"

(سعيد): "ليه!؟"

(هدايا): "هكلّمك بصراحة.. إحنا هنتجوّز، مش كده؟"

قطب (سعيد) حاجبيه من الدهشة: "طبعا"

(هدايا): "يوم ما مات البواب كنت عارفة إنك في شغلانة جديدة، وفجأة شفت حد داخل عمارتكم.. افتكرتك انت.. بس ظهر إنه صاحبك.. عرفته من شنبه وشعره الغريب.. وفجأة حسيت بكركبة في أوضة البواب، فتحت الشيش بالراحة ملقتشي حد، بس لقيت صاحبك بيبص من ورا شباك الحمام ناحيتي بس ماشافنيش، وقام غسل وشه ونزل جري بس ماشفتوش وهو نازل.. خفت أبص عليه ليشوفني"

أدرك (سعيد) كذب (نبيل).. لقد أفاد أنه سافر ولم يكن موجوداً؛ فبرر لهدايا حتى لقائه ومواجهته: "ما هو معاه مفتاح الشقة ده زي أخويا... هو حكالي على صوت الكركبة ده وبيقولي إن البوليس سأله إن كان سمع حاجة، خاف وقال إنه ميعرفش حاجة.. وكمان عرف إنك...

قاطعته (هدايا): "والله ما قُلت حاجة.. أنا قلت صاحبك يمسّك، وأنا بعزك يا (سعيد).. مرديتش أقولهم حاجة وحياتك عندي قلت إنك في شغل برة البلد وإني ماشفتش حاجة.. بس (البواب) اتدهول.. كان منتن وبخيل والبوليس اكتشف إنه اتقتل عشان كان معاه فلوس كتير عاينهم، وكمان قالوا إنه كان

بيعمل شحات في البلاد اللي حوالينا والناس بيصعب عليها شكله.. عمل خميرة المعفن وسابهم لمين بأة أهو مات!"

(سعيد): "هو فعلا مكنش كويس، وفي الآخر عرفت إن ابن عمه كان بيهدده وِش بالفلوس دي، عشان كده اللي يسوى واللي مايسواش عرف سره، وبقت ميغا بأة والشكوك اتوزعت على اللي حواليه، بس ابن عمه أكتر واحد عشان هدده... نبيل حكالي كل ده..."

(هدايا): "بس عشان بعزك يا (سعيد) متكلمتش في الموضوع ده"

ابتسم (سعيد)، وهو يلمح ماكينة خياطة كبيرة الحجم.

احمر وجه (هدايا) وتحدثت محرجة: "ساعات بعمل خياطة بالليل بس معنتش.. كانت هواية بأة"

ثم تداركت شيئا فقالت: "صحيح.. من يومين بس كنت ببص عليك فاكتشفت إنك في شغل من بالليل.. لما جيت النهاردة اكتشفت إنك بتشتغل في الفيلا المهجورة دي.. بتاعت مين صحيح؟؟"

(سعيد): "فيلا الأستاذ (قدري الفولي).. انتي تعرفي الفيلا دي!؟"

تنهدت (هدايا) ناظرة نحو اللوحة المقلوبة: "(جوزي) لقوه مقتول قريب من الفيلا دي"

تعجب (سعيد): "هو جوزك كان بيشتغل إيه يا (هدايا)؟؟"

(هدايا) بأسى بالغ وكأن السؤال صدمها: "(سعيد) ممكن نغير الموضوع لو سمحت.. مش عاوزة أسمع سيرته... وهحكيلك بعدين!"

ثم ذرفت دموعها رغمًا عنها، وكأنها تحمل سرا لم يبالي له شيطان (سعيد)، بل أحس أنها الآن ضعيفة أمامه، وأنه يمتلك زمام الأمور، فجلس بجانبها واحتواها بحضن دافئ ليزيح عن كاهلها، فلاحظ بوجهها جرحًا قديمًا مختفيًا أسفل خصل شعرها، فنظر بعينيه لها متسائلا عن سببه، فردت له بعين دامعة وكأنها تكرر: "بعدين"، وبعدها لم تبدي رد فعل، ورحبت بقبلاته وقد أحست بضعفها واستسلامها، وعلى النقيض أحس (سعيد) بعنفوانه ودمائه تندفع من أنحاء جسده، أحس أنه لأول مرة يلامس امرأة ويداعبها، وبدأت (هدايا) في توجيهه بالفطرة وبخبرة زواجها الأول، حتى امتزجت رائحة البخور برائحة عرقهما في أقل من ربع ساعة. لم يشعرا بجسديهما إلا وهما ملقيان على السرير ملتصقين ببعضهما.. و(سعيد) بعد أن أنهى وهو ينهج: "تتجوزيني؟؟"

أومأت له (هدايا) بسعادة، فقبّلها من رأسها واستلقى بجانبها، وهو يشكّل حياته الجديدة في خياله، وتبقت مشكلته الوحيدة في إبعاد نبيل عن حياته؛ فـ(هدايا) لا ترتاح إليه... وكذلك هو!
ثم نظر إلى وجهها المشرق رغم كل شيء، وكتفها الموشوم بوشم الحنة، عندما تحدثت إليه وهي مغمضة كالقطط: "احكيلي عن شغلك الجديد يا (سعيد).. وعن (قدري الفولي) ده"
وبدأ يقص عليها كل شيء في اليومين السابقين، ما عدا الغموض

الذي يحيطه والكوابيس التي زادت عليه؛ فلم يُرِد إخافتها، إذ قصّ عليها الجانب المميز في وظيفته.

كما تبين له أن (نبيل) اتصل به ألف مرة، لكن لم يجبه.... ولن!

*****

نظرت لمياء بغيرة شديد إلى الصفحات التي قرأتها، وقد أدركت أنها صفر على اليسار من حياة (سعيد)، ولم توفَّق في الاقتراب إليه… وبدأت فعلا في التغير، عندما هداها تفكيرها إلى محاولة استغلال (نبيل) في إفساد تلك العلاقة التي بدأت للتو، خاصةً أنه سيوافقها الرأي، لذا جمعت الصفحات مع البقية بحقيبتها، ووضعتها في قبر جدتها وأطفأت الكشاف المضيء، ومضت مسرعة خارجة من منطقة القبور إلى شقة (سعيد)، عالمة أن (نبيل) يأتي إليه كل يوم لزيارته وتوصيله ليلًا.

وانتظرت بجانب بوابة المبنى حتى قدومه، وهي تخطط لإفساد علاقته الواهية التي ستفسده، مع تلك العاهرة (هدايا)، كما أسمّتها.

*****

لا تعلم (لمياء) كيف لم يأت (نبيل) اليوم لزيارة (سعيد)، الذي يدرك جيدا أنه غاضب منه لعدم إجابته. يتمنى أن يقضي الليل بطوله مع (هدايا)، لكن أكل العيش الذي تمسّك به، والغموض الذي يحيط بتلك الفيلا، وبـ(الجد) البارد، جعلاه يتساءل كيف هي حياته مع (داليا) بقية اليوم.

لذا نهض برفق حتى لا يوقظ جميلته، وقبّلها برفق فابتسمت متنهدة، فتح باب الشقة ببطء، ثم اتجه هابطا إلى الشارع في اتجاه منزله، فقابل (لمياء) وهي تجلس وقد أصابها ملل الانتظار، حتى فوجئت بـ(سعيد) وليس (نبيل)، الأمر الذي أصابها بصدمة ولم تتوقعه، وقد أحست أنه ضاع ما خططت له!

تساءل (سعيد) في حيرة: "لمياء!!"

(لمياء) مذهولة وقد أحست أن نفسها قادتها إلى فخ: "إزيك يا (سعيد)؟؟"

نظر (سعيد) إلى شُباك (هدايا) بالأعلى، فاطمأن لعدم وجودها، ثم جذب لمياء من ذراعها إلى مدخل العمارة المظلم: "خير يا (لمياء) فيه حاجة؟؟"

(لمياء) مصطنعة إجابة سريعة: "لأ.. كنت بصراحة عاوزة أشوف (نبيل).. مبيردش على التليفون.. كنت فاكراه عندك!"

(سعيد) متحيّراَ: "(نبيل)!! ممكن أعرف ليه!؟ وإزاي تعرفي (نبيل)!؟؟"

(لمياء) وقد توترت: "(سعيد).. هتصدّقني لو صارحتك بسر خطير!؟"

انتقل التوتر من (لمياء) إلى (سعيد)، الذي تعجب: "خير يا (لمياء)!؟؟"

اصطنعت (لمياء) البكاء: "أنا صاحبة (نبيل)!"

(سعيد): "انتي!!؟؟"

(لمياء): "أيوة أنا!"

(سعيد): "إزاي!؟"

(لمياء) وهي مستمرة في وصلة الكذب: "ابعد عن (نبيل) لو سمحت يا (سعيد).. أنا علاقتي بيه هتبوظ بسببك!"

(سعيد) مقطبا حاجبيه وقد أحس بكذبها: "لما حكيت لـ(نبيل) على مقابلتنا، مقاليش تعليق عليكي، خصوصًا إن انتي اللي بدأتي الكلام معايا! انتي عاوزة إيه بالظبط!؟؟"

(لمياء) وهي تذرف الدموع، وقد أحست أنها عقدت الأمور وفشلت في الكذب، وبدأت تصارحه: "الموضوع أكبر من كده.. كان نفسي أشرحــ....."

لم تكمل عبارتها، إذ عنّفها (سعيد): "كان نفسك إيه انطقي!!"

(لمياء): "عشان خاطري ابعد عن (التلاتة) دول.. (نبيل) و(هدايا) و(قدري)"

(سعيد): "وانتي جيتي على أكتر (تلاتة) مرتبطين بيا جدا!!؟ ثم انتي عرفتيهم إزاي!!؟ انتي مراقباني!؟؟"

(لمياء) وهي تصارحه وقد فشلت: "يمكن أنا غريبة ومبشكلش حاجة في حياتك، بس أرجوك ابعد عن (التلاتة) دول.. مش

هاقدر أشرح أكتر من كده... هيدمروك"، ثم شرعت في البكاء الحار: "هيدمّروك يا (سعيد)... هاتضيع بسببهم"، ثم استعانت بما قرأته ليصدّقها: "هيجِنّوك، انت أكيد بتشوف كوابيس صح؟"

برق (سعيد) من الدهشة، وقد بدأ في تصديقها بسبب الكوابيس التي تراوده والظواهر الغريبة التي تعصف به: "انتي عرفتي منين كل ده؟؟ اشرحي!"

(لمياء): "أنا خلاص ممكن متعرفش تشوفني تاني.. أنا مسافرة"

(سعيد): "أنا مش فاهم حاجة منك"، ثم نظر لساعته وأردف: "أنا كده هتأخّر على شغلي"

(لمياء): "مقدرش أشرحلك.. لو شرحتلك مش هتصدّق.. اسمع كلامي مش بإيدي.. أرجوك اسمع كلامي.. لو تعرف معزتي ليك أد إيه، أنا حبيتك"

تعجب (سعيد) من هذا الرد وعلى وجهه ألف علامة استفهام.

أكملت (لمياء): "بس عارفة إنك مش بتحبني.. أنا دلوقتي طريقي معقد ومش مفهوم بس كان لازم أحذرك"، ولم تنتظر إجابة؛ إذ انطلقت تعدو مسرعة وسط ذهول (سعيد)، الذي شعر أنه يتخيل كل هذا الحديث، أو أنه يعاني من أحد الكوابيس المعتادة وسيستيقظ الآن بين أحضان (هدايا).

لمح من أسفل شباك (هدايا) فأحس بحركة من الداخل، لابد أنها استيقظت! لذا أسرع إلى شقته وسط الظلام ليتطمئن أنها لم

تشاهد (لمياء)، وليلقي لها التحية ويشير أنه سيراها غدا.

دخل شقته وفتح الشباك، فوجدها بقميص النوم وهي تبتسم بعينين حمراوتين وتشير له: "رحت فين!؟"

حاول إخفاء قلقه فاصطنع الابتسامة قائلا: "رايح الشغل.. هشوفك بكرة"

(هدايا): "أجيلك زي النهاردة؟"

(سعيد): "متتعبيش نفسك"، ثم نظر لنفسه وأشار للساعة: "هستحمى عشان ألبس"

(هدايا): "طب وريني نفسك قبل ما تمشي"

أومأ (سعيد) وانطلق على الفور يغتسل، ثم ارتدى أشيك ملابسه في عجالة وأطل من الشباك، ثم نظرت (هدايا) إلى ملابسه الكلاسيكية: "بكرة نروح نشتري لبس جديد على الموضة"

ابتسم (سعيد) فرحا بهذا الاهتمام، فتأكد أنها تحبه لشخصه، لكن سرعان ما اختفت الابتسامة، عندما شاهد (نبيل) يقف وراء (هدايا) ويبتسم هو الآخر!

لاحظت (هدايا) هذا التغير، فنظرت خلفها، لكن (نبيل) قد اختفي!

عادت (هدايا) للنظر إلى (سعيد) مرة أخري: "مالك فيه حاجة!؟"

(سعيد) وقد تأكد أنه يتخيل: "لأ"، ثم أخفى قلقه الذي زاد داخله، مرسلا لها قبلة في الهواء: "هتوحشيني.. سلام"

(هدايا): "سلام"

ثم أسرع هابطًا على الفور، ناظرا لـ(هدايا) مرة أخرى مبتسمًا، وهو يجري ليلحق ميعاده، وتناول هاتفه المحمول وهو يسب ويلعن (نبيل)، الذي رد عليه: "صاحبي شفتني!؟"

(سعيد): "وحياتك ما هعدّيهالك يا (نبيل) "

(نبيل): "يا صاحبي هتعديهالي بمزاجك.. انت حبيبي! بص وراك كده"

نظر (سعيد) إلى الوراء، فشاهد (نبيل) وهو يقف بالسيارة: "اركب هوصلك ونتفاهم.. ومتزعلش.. انت سبت الباب مفتوح حبيت أبص عليكم"

(سعيد) وهو يغلق هاتفه ويدخل السيارة مغلقا بابها بعنف شديد، ويصيح بانفعال: "(نبيل)!! انت بتتجسس على صاحبك!؟"

(نبيل): "اهدا بس يا (سعيد) متزعلش مني كنت بهزّر شوية معاك! لقيت باب الشقة مفتوح، شوارتلك منه ونزلت على طول، وانت لمحتني من الشباك.. بس كده"

لم يقتنع (سعيد) بمبرر (نبيل)، لذا آثر السكوت طوال الطريق، و(نبيل) كذلك، يتحدثان بالنظرات، حتى وصلا غايتهما، وتوجه

(سعيد) تاركًا (نبيل) بلا سلام ولا كلام.. إلى الباب ليطرقه.

ونبيل يعفّر بسيارته الحمراء ليختفي، ليبدو لهما أن علاقتهما قد شارفت على الانتهاء.

*****

صعد (سعيد) إلى حجرة (داليا)، التي تمشط شعر (دميتها) كعادتها وكأن الشعر عاد ينمو لها مرة أخرى، وكالمتوقع تغيرت ملامح (داليا) للمرة الثانية، والدليل تلك الصورة التي التقطها أمس ومدى اختلافها عندما طابقها، هذا الموقف زاده إصرارا لمعرفة وكشف هذا الغموض ولكن بحذر.

حاول أن يستنبط من (داليا) إجابات حول أنشطة (الجد) داخل المخزن، لكنه فشل فشلًا ذريعًا، حتى أجبرها على النوم؛ حتى يفرغ للـ(جد) ويبدأ في مراقبته بحذر.

لذا هبط إلى الأسفل، وأسند أذنيه على الباب، ليستمع إلى صوت (الجد) وهو يتحدث إلى أشخاص ما!

تساءل (سعيد) في حيرة: "بيكلّم مين!؟؟"

ثم أحس بخطواته تقترب، فأسرع يختبئ.

خرج (الجد) ونظر لأعلى ليطمئن أن الهدوء يعم بالحجرة، ثم دلف مسرعا للداخل مرة أخرى وبعصبية، ساهيًا عن غلق الباب، ثم اقترب من البابِ الحجري، ليَفتح له وتتعالى الصرخات والاستغاثات، مرتديًا تلك العباءة السوداء المنقوشة

والمربوطة بالحبال.

اقترب (سعيد)، كاد أن يتعثر في تلك الحبال، ليتزن بجسده في صمت، وراقب (الجد) وهو يدخل عبر الباب ويختفي محدثا تلك الهزة الكبيرة، ولا أثر له باستثناء الحبال... فأحس بالرعب يسري في دمائه؛ فأيامه معدودة هنا، ويبدو أنه اقترب من تصديق تنبيهات (لمياء)، وأن هناك مخطط غامض للـ(جد)، ولـ(داليا) التي تتبدل ملامحها كل يوم!

لكن فضوله أجبره على أن يتحامل على نفسه ويتعمق داخل المخزن، فشاهد على الجانب الأيمن دولابا مليئا بالعباءات السوداء الملتفة حول بعضها، وعلى الجانب الآخر صفحات الحوادث لجرائد مختلفة، وبها صور لأناس محترقة ومقتولة مكشوط على وجوههم وعلى الكتابات، وتتنوع الأخبار في شبهات جنائية بفعل فاعل، حاول استنباطها وقراءتها لكن لا فائدة!

أحس (سعيد) أن قدومه هنا فيه خطورة شديدة عليه، لذا التقط بهاتفه عدة صور لفحصها في وقت آخر.

وأسرع عائدا إلى غرفة (داليا)، التي مازالت كالملاك النائم، لكن (دميتها) ساقطة على الأرض. أدرك أن النظر إليها يصيبه بالغثيان والدوار، لذا التقطها ووضعها بجانب (داليا)، التي احتضنتها بقوة شديدة.

ثم تربع على الأريكة واتصل بـ(هدايا)، التي أثلجت صدره

بعبارات الهيام والشوق والإثارة، فجعلته ينامٍ ولأول مرة في حياته نومة هنيئة مستقرة، وقد استيقظ صباحا على يقين تام أن علاقته بـها ستحسن من حاله وتزيل من همومه المتراكمة، والتي كانت تتجسد في الكوابيس وآلام الرأس والدوار والغثيان.

لأول مرة يبتسم له (الجد) عندما قابله، ولأول مرة يلاحظ (سعيد) أن عينيه في المرآة أصبحتا طبيعيتين وقد زال منهما الاحمرار.

تأكد تماما أن (هدايا) أصبحت وجه السعد عليه، وقرر أنها له وسيتزوجها حتمًا.

لكن بعد كشف غموض تلك الفيلا الغريبة بما يقطنها...!

*****

أحست (لمياء) باختناق شديد فور ترك (سعيد)، وأن نهايتها اقتربت، فأسرعت إلى نافذة (العجوز الكاتبة) وهي تصرخ لها: "أرجوكي قبل ما تنفذي عليّا حكم! لازم أعرف الحقيقة.. (الناس) دي عايزة إيه من سعيد؟؟ أنا... عاوزة أنقذه! أرجوكي خلي في قلبك رحمة مش عاوزاه يموت أو يتجنن!"

وفجأة، انقشع الضباب حول النافذة، تاركا وراءه بابًا خشبيًا مفتوحًا نصف فتحة، منقوشًا عليه حروف غريبة.

مسحت (لمياء) دموعها، وهي تدلف مترددة وخائفة من صوت صريره وهو ينفرج لها، ثم انغلق خلفها ليظلم المكان من

حولها، باستثناء تلك البوابة الحمراء الدامية التي أمامها وهي تفتح على مصراعيها، وتقف أمامها العجوز وتشير لها بالقدوم، فإذا بها تتقدم بسرعة وتعبر منه، لتشاهد طريقا محاطا بالأسلاك، فوقفت، لتشاهد عن كثب انقلاب الدنيا بها رأسا على عقب. وتتهاوى الجدران، وتهتز بها الأرض، لتحترق المحيطات من حولها، ولتصبح الحرارة غير محتملة.

وبدأت قطرات العرق تنساب منها، لتسقط كالأمطار فتجف قبل حطوطها، ثم تلاشت الرؤيا من حولها، وكأن بساط الأرض انسحب من أسفلها، لتسقط في غياهب الظلام، ليصبح الجو باردا من سرعة السقوط، وكان الاصطدام وشيكا، لكنه كان كمن احتضنتها الأرض وطبعت بجسدها فيها بلين ورفق، فوقفت على قدميها وبدأت في القيء المستمر عقب تلك الرحلة الغريبة، التي شكت أنه لا مجال من العودة منها، بعد أن أحست بانسلاخ روحها عن جسدها، لتنفصل عن جسدها ويهوي جسدها على الأرض، ثم تراءى لروحها بابًا ثالثًا غريب الطراز لا يوجد به مزلاج، لكن تدلى من أعلى السقف أنبوب أحمر كغيره من الأنابيب الموصلة بالعجوز، في نهايته إبرة غليظة جدا، وقد لمحت فراغا بنفس قطر تلك الإبرة، لتدخله من تلقاء نفسها وتستقر بنجاح، لينفتح لها الباب وتدخل إلى العجوز، التي أمسكت بها بقوة شديدة، لتغرز بيديها عليها حتى لا تفلت منها!

*****

بعد شوق ولهفة اللقاء الحار بين (سعيد) و(هدايا)، وتبادل

القبلات المختلطة بأنين الحب، استلقى الجسدان وقد خارت قوتهما على السرير، ينظران للسقف، إلى غرض ثابت، يبتسمان بالأمل، يحيطهما الاستقرار من كل جانب.

لمح سعيد لوحة أخرى للـ(زوج) مقلوبة في غرفة النوم.

فكر أنه حان وقت استخلاص الحقيقة منها وسؤالها عن (زوجها) المقتول، والذي لم يتذكر أن رآه قبل ذلك.

فبدأ (سعيد) وهو يضمها إليه مرة أخري: "ممكن أسألك سؤال؟"

(هدايا) وهي تغمض عينيها وتدفن رأسها في صدره براحة وطمأنينة: "اممم"

(سعيد) مطلقًا سؤاله دون مقدمات: "جوزك اتقتل إزاي؟؟"

هذا السؤال الذي أخرج (هدايا) من دائرة الحنان، ففتحت عينيها متنهدة: "قصة طويلة!"

(سعيد): "كنتي بتحبيه؟"

هزت (هدايا) رأسها نفيَا: "جواز مصلحة بين بابا وباباه.. كانوا معلمين وتجار في السوق"

(سعيد): "طب كان كويس معاكي؟"

(هدايا): "كان بلطجي يا (سعيد)... هو وأخوه"

(سعيد): "طب ممكن تحكي؟"

(هدايا) بضيق: "لازم أحكي يعني!؟ ده وقته يا (سعيد)!؟"

(سعيد) وقد أحس أنها تماطله وتخفي سرًا ما، فرد متضايقًا: "احكي يا هدايا عشان لازم أعرف، وحاسس إنك مخبية حاجة"

(هدايا): "لأ خالص.. بس هي ذكريات وحشة.. انت لسة بدري على شغلك صح؟"

(سعيد) منتظرًا نهاية لتلك المماطلة فتنهد: "صح"

(هدايا): "ماشي.. أيامها اتجوزت شابة، بس ضيعوا شبابي بالجوازة دي وكرهوني في عيشتي"، وبدأت (هدايا) تحكي منذ زيارة (المعلم غزال) لوالدها (المعلم فواز)، أكبر تاجرين للأخشاب في البلدة.

*****

(٤)

هدايا

منذ سنوات قليلة:

ضحك (المعلم غزال) لـ(هدايا) الشابة الجميلة محدثًا (والدها): "ما شاء الله ما شاء الله يا (حاج فواز)! انت عندك ملايكة في البيت!؟"

(الحاج فواز): "ربنا يكرم أصلك يا (غزال).. البركة في الملاك الكبير (أمها).. خدت منها كل حاجة"

ضحك (غزال) وغمز: "طب قلت إيه!؟"

(فواز): "قلت آمين يا بركة.. هو أنا هلاقي حد يشرفني غيرك وغير (أستاذ خالد)!؟"

تبدلت ضحكة (هدايا) فور سماع اسم (خالد)، ثم نظرت لـ(والدها) نظرة تعجب، وأمسكت دموعها، وقامت بخجل مصطنع، عائدة في حضن (والدتها) بالمطبخ.

(الوالدة): "مالك!؟"

(هدايا): "عاوزين يجوزوني (خالد البلطجي)"

(الوالدة): "بلطجي في عينك! أومال عاوزة تتجوزي مين يا بنت (فواز)!؟"

(هدايا): "حرام عليكي يا ماما! أنا مش بحبه ولا بطيقه"

(الوالدة): "بس! انتي مش فاهمه حاجة!"

(هدايا) وهي تنهج من الحزن: "انتي اللي مش فاهمه حاجة يا (ماما)!"

(الوالدة): "اخرسي يا كلبة قطع لسانك! وإيّاكي تتكلمي في حاجة ولا تعترضي! وإيّاكي أسمع كلمة بلطجي دي تاني!"

نظرت (هدايا)، ولم تتمالك نفسها من البكاء الذي زاد.

ومرت الأيام مملة ومؤلمة، حتى أصبحت (هدايا فواز) حرم (خالد غزال) الملقّب بـ(خالد البلطجي).

*****

نظر (خالد) إلى (زوجته): "شرفتي بيتك يا (هدايا)"

نظرت (هدايا) بقرف إلى (زوجها)، وبتلقائية تنم عن ما بداخلها من صراحة وجرأة صاحت: "اسكت خالص ولا تنطق اسمي! انت اتجوزتني غصب عني!"

ضحك (خالد) ببرود واستهزاء: "على طول كده!؟ وش بترزعي كلامك الدبش في وشي!؟ معلش صدمة الجواز.. كلهم بيخافوا أول يوم"، ثم نظر لها صامتا للحظة، و(هدايا) تتابعه بين الحين والآخر يتلمس وجهها الناعم.

وفجأة صفعها صفعة قوية عليه: "عشان كده لازم ندبحلهم القطة على طول!"

صرخت (هدايا) ساقطة على الأرض من هول الصدمة، وقد

تأكدت أنها سقطت في بئر سحيق من القهر والتعاسة.

ومرت الأيام، وازداد الأمر سوءاَ، وأصيبت (هدايا) بحالة نفور عن (زوجها) لإيذائه لها بشتى الطرق، إلى أن فقد الأمل منها واتجه نحو علاقاته السابقة ليجددها، تاركًا إياها في منزلها تناشد الوحدة، ولم تحمل له وليدا حتى ذلك الوقت.

كثيرا ما كانت تشاهد الجيران الساكنين أمامها، تشاهد (سعيد) وهو ينمو معها وتزداد إعجاباً به، وهو يعيش في دولة الوحدة مثلها.. روتين يومي رهيب ينم عن ملل متشابه، وقد أحست بالكبت تجاهه.

أحست بالاعتراض على قدرها، ولم تتجه إلى مناجاة ربها؛ إذ لجأت إلى محاولة خطف أنظار جارها دون الحديث معه. كبتت هذا الإحساس إلى أن واتت لها الفُرصة، والتي انتهت بنهاية مرعبة!

*****

ففي يوم استمعت (هدايا) إلى (زوجها)، الذي عصفت به المخدرات، وتوغل إلى أعلى مستويات الجريمة، وهو يتحدث في الهاتف:

"بتقول إيه!؟ فيلا؟ فين دي؟؟"

"آه هنقشّطها ع الآخر طبعا...آه اللي كانت مولد... بتاع مين!؟..... عارفها"

"حلو أوي... وراها ترعة وحلقة صيادين وقدمها شونة قطن في

نفس الأرض.. جميل.. الحوار سهل"

"سيبها عليا... آه لوحدي دي سهلة مش حوار... هخلّص وهجيلك"

أغلق مكالمته، ثم دلف الحجرة على (هدايا)، التي تظاهرت بأنها نائمة، وتفوح منها رائحة سيئة تشبه البصل، فبصق عليها كعادته: "جمال ع الفاضي جتِك القرف! بوزك فقر وريحتك زي الزفت!"

(هدايا) كانت تتعمد أن تتقبّح لا أن تتجمل له، بعد أن كانت أميرة في منزلها، والآن باتت وحيدة؛ فقد توفي (والدها) إثر سكتة قلبية، و(والدتها) أصبحت قعيدة في المنزل تزورها بين الحين والآخر، وليس لها إخوة، وما زاد من الفاجعة أن (خالد) يرفض استضافة العجوز بمنزله لتعتني بها ابنتها، بحجة الإفلاس.

وتم القبض على (والده الأرمل المعلم غزال) بتهمة تجارة المخدرات وتهريبها، وكان الخبر صدمة غير متوقعة على الجميع خاصة (والدتها)، التي ندمت ندمًا شديدًا على تسرعها وتزويج (ابنتها) (لابنه) رغم توسلات (هدايا) لها.

حتى بعد أن عرضت (هدايا) أنها لن تنفق قرشًا من ماله المنتهي، وأنها ستنفق من أموالها، تمادى في الرفض ونيته الطمع.

بعد تلك المكالمة الغريبة وبعد أن بصق عليها، قامت ونظرت له بكل برود تتمنى موته: "رايح فين!؟"

(خالد) وهو يضحك في غير وعيه: "وانتي مال أهلك!؟"

صرخت (هدايا) وقد فاض بها الكيل: "(أهلي) دول اللي جوزوني ليك يا وسخ! (أهلي) دول اللي انت منعتني إني أزورهم! (أمي) اللي انت مش عاوزني أجيبها أخلي بالي منها في آخر أيامها، والخدامين هما اللي بيخدّموا عليها، ومعرفش عنها أي حاجة غير فين وفين... غور في داهية تاخدك!"

ضحك (خالد) بلامبالاة كالعادة، مغلقا الباب خلفه برجة كاد قلبها يقفز من الخوف معها، وكان صوت هذه الرجّة آخر صوت صادر من ذلك الزوج القاسي.

*****

قفزت (هدايا) من مكانها، وتوجهت نحو الهاتف وهي تسب وتلعن (زوجها)؛ لتشاهد آخر رقم قد تحدث إليه، وإذا به رقم أخيه، فعاودت الاتصال به، ورفعت السماعة إلى أذنها بسرعة شديدة. لم تكد تستمع نغمة اتصالها إلا وأخيه يرد: "عاوز إيه يا زفت؟"

(هدايا): "أنا مش الزفت"

(الأخ) متلجلجاً: "هدايا!!؟"

(هدايا): "(خالد) راح فين وناويين على إيه؟؟"

أغلق (الأخ) الهاتف في وجهها.

ولكنها لم تهدأ، فقد أحست أن (زوجها) و(أخاه) ينويان شرا، فخافت.

فعاودت الاتصال به مرة أخرى، فرد بذات السرعة عليها،

فباغتته بعصبية: "بقولك (خالد) رايح فين؟؟"

(الأخ): "انتي عاوزة إيه!؟ هو انتي متعرفيش إن (أنا) و(خالد) مبنتكلمش بقالنا شهر!؟ غوري بأة انتي وهو جتكم القرف سيبوني ف حالي"

(هدايا): "انت كداب انتو لسه متكلمين حالا!"

بيد أن (الأخ) قد أغلق الهاتف في وجهها مرة أخرى!

لكن (هدايا) لم يهدأ لها بال. وضعت السماعة بعصبية شديدة كادت أن تسقط الهاتف بأكمله، ثم فكرت للحظات، وخطر على بالها الاتصال بالشرطة كفاعلة خير لتنقذ ما يمكن إنقاذه، لعلها فرصة أن تتخلص منه بالقانون، فعادت للهاتف وقد وجدت أن كابل حرارة الهاتف قد أزيح عن موضعه، ظنت أنه من جراء عصبيتها بالمكالمة السابقة على الهاتف، فأدخلت الكابل محله واتصلت برقم النجدة، ليحولها على هاتف المباحث بناء على طلبها وإلحاحها غير الطبيعي، فرد عليها (ضابط شرطة المباحث) بلباقة شديدة، وقابلته بتوتر شديد واسم مستعار وأبلغته أنها تنوي خيرا بتسليم (خالد غزال البلطجي)، وأخبرته بنشاطاته ونيته بإلحاق الأذى لسكان الفيلا، وهو يستمع ويدون كل حرف صادر منها بسرعة واهتمام غير عادي، لكنه توقف عن تدوينه وخف نشاطه وحماسه، وقد أحس بعدم جدية البلاغ مصرحًا بأسبابه في مفاجأة: "اللي بتقوليه إنه ناوي شر على أهل الفيلا... انتي متعرفيش إن الفيلا دي مهجورة!؟ هيروح يعمل فيها إيه!؟ أكيد آخره يضرب فيها مخدرات!"

(هدايا): "إزاي!؟ أنا سامعاه كويس وهو بيتكلم عنها هو وأخوه"

(الضابط) متعجباَ: "أخو (خالد غزال)!؟"

ثم تنهد ليفجر مفاجأة أخرى مدوية، جعلتها تشك في صلاحية أذنيها وعقلها: "أخو (خالد) منتحر من شهر.. مين حضرتك بأة وسمعتي (خالد) منين!؟"

صُدمت (هدايا) وتلجلجت، وتساءلت مع نفسها: "امتى ده حصل!؟ أومال مين اللي كنت بكلمه دلوقتي!؟؟"

وقد كادت أن تقص على (الضابط) الحقيقة ومكالمتها بـ(أخو خالد)، وعن يقين بأنه كان صوته وطريقة حديثه، لكنها تراجعت، توقفت وكررت اسمها المستعار على مسامعه، وأدركت أنها الآن وقعت بمأزق البلاغ الكاذب، أو أنها مجرد مجنونة تتصل.

ولكن لسعة صدر (الضابط) لم ينتظر منها إجابة وافية بماهيتها وعن اسمها، وهدفا منه لاستيفاء المعلومات اللازمة لإدانة (خالد) حتى لو بقدر تافه، استنتج لها عن عدم اقتناع مبرراً منطقياَ قائلا: "فيه ناس من كتر حبها للي ماتوا بتغلط بأساميهم.. ومش بعيد يكون بيكلم حد اسمه على اسم أخوه.. عموما معاكي (الأمين شوقي) هياخد بياناتك وكل المعلومات.. حاجة تانية!؟"

(هدايا) وقد شل لسانها الذي رد بصعوبة: "ششكرا!! آسفة على

الإزعاج"، وقد صدق توقعها أن الضابط اعتبر البلاغ كاذبًا بنسبة كبيرة

(الضابط) وهو يساوره الشك أنها (زوجته): "ولا يهمك!"، قالها وهو يشير لـ(شوقي)، الذي مال عليه فناوله سماعة الهاتف وبلهجة آمرة همس له: "خد البيانات ع السريع.. واكتب كل حاجة تقولها"

وبالفعل تم استيفاء البيانات اللازمة منها بماهية واهية وبذلك الاسم المستعار لها، وهي تحاول أن تخرج صوتها بصعوبة ليسمعه (شوقي).

أغلقت (هدايا) المكالمة وعقلها يكاد ينفجر من التفكير، فيما أبلغت الشرطة من جنون!

*****

أطرقت (هدايا) في صمت حتى ظن (سعيد) أنها نامت، لكنها أكملت: "ومرجعش بعد ما خرج يوميها... وأنا دماغي ودت وجابت وسمعت إن الشرطة فعلا بدأت تدور عليه... وابتدوا من البيت كأول مكان.. ده خلاني أنزل بعديها بكام يوم وأروح الفيلا أسأل بنفسي"

"عرفت فعلا إنها فيلا مهجورة وكلام الضابط كان صح"

ثم توقفت وابتلعت ريقها مكملة: "انت خفت!؟"

(سعيد): "مش أوي"

أكملت (هدايا): "الناس كلها كانت بتتكلم على حتة الفيلا، وإشاعات كتير على الأرض اللي اتبنت عليها، فيه منهم بيصدق ومنهم بيكدب، خصوصا الصيادين هناك؛ كان مكان صيدهم ورا الفيلا فكانوا بيكدبوا الإشاعات دي عشان ده أكل عيشهم، لغاية ما حصل اللي خلى الكل يصدق"

عدلت (هدايا) من وضع نومتها، وضغطت على يد (سعيد) بعصبية مكملة: "البوليس بلغني بإنهم لقوا جثة جوزي ولازم آجي المشرحة عشان أتعرف عليه.. رحت شفته.. اتعرفت عليه بالعافية.. كان فيه علامة مميزاه... منظره كان بشع.. بجد بشع أوي.. ربنا انتقملي منه"

(سعيد): "يااااه!"

أكملت (هدايا): "الناس حكتلي القصة وإزاي لقوه.. في اليوم ده بالليل أوي قرب الفجر، كان فيه اتنين، كانوا قاعدين في الحلقة، مش هنسى اسمهم.. (الحاج صفوت) وده راجل أعمى و(ولد شباب صياد) واسمه (عزّت).. فجأة البلد وكل القرى اللي على الترعة سمعوا صوت صويت وصريخ عالي، جريوا على هناك لقو الراجل يا عيني جايله سكتة قلبية ولونه مخطوف خالص، والولد يا عيني داخل في راسه فرع شجرة وخارج من الناحية التانية"

توتر (سعيد) مكشرا بحاجبيه ضاغطا على يد (هدايا)، جازا بأسنانه يسحب الهواء بفمه كفحيح الأفعى.

أكملت (هدايا) كأنها تتشفى في وصفها: "الناس لقت خيط

الصنارة مصطاد راس جوزي وحتة من كتفه، وكأن كل طوب البحر نهش منه حته"

(سعيد) مشمئزًا: "بس يا (هدايا) كفاية!"

(هدايا): "استنى بس عاوز أوصلّك حاجة.. من يوميها والصيادين معدوش بيروحوا، ونقلوا الحلقة في حتة تانية خالص؛ عشان كل يوم بيسمعوا صوت ضفادع قوي بالليل، وبيلاقوا في نفس الحتة صنارة وشبكة وطُعم في كيس كل يوم، ومبيلاقوش حد.. كل ما بيشيلوا الحاجات دي بييجوا كل يوم يلاقوها"

"كانوا بيصطادوا سمك.. مجرد ما يتشغلوا بحاجة تانية يلاقوا السمك اختفى، وساعات بيلاقوه مرشوق في فروع الشجر وميت، لغاية ما اتأكدوا إن دي عفاريت وإن الكلام ده مش من حد منهم، ومعدش حد بيقرب أو يهوّب ناحية الفيلا والحتة اللي حواليها، وكل واحد باني قريب منها عمل سور، ومش بعيد يفكر يبيع شقته من الرعب وكتر الإشاعات اللي طلعت"

(سعيد) وهو يتعرق: "كل ده في الفيلا اللي أنا شغّال فيها!؟ وكل يوم!؟ أنا مسمعتش غير صوت الضفادع.. ده طبيعي، بس اللي مش طبيعي حاجات الصيد والسمك ده"

(هدايا): "فيه واحد شغال في الشونة بيحرسها، حب يعمل حمّام وعامل فيها سبع البرومبة، راح على شط الترعة وسمع الحوار اللي بيحصل بالليل... بس مشافش حاجة"

"قعد يحلف إنه سمع (عم صفوت) وهو بيرمي السلام على (الواد عزت) ويطلب منه يعلمه الصيد، ويصطادوا بس (عم صفوت) مش بيصطاد حاجة، وفجأة زي ما يكون اصطادوا حاجة وبيبقى فيه صويت عالي ويختفوا"

"وبعديها جاتله حالة جنان ومبقاش طبيعي، ومن يومها محدش بقى بيقرب من الفيلا.. اللي بيقرب بيتلبس"

"الطب الشرعي قال: إن جوزي كان سكران طينة أو ضارب ع الآخر وحد قتله ورماه في الترعة قرب الفيلا.. ممكن خناقة.. والسمك أكل منه والمية حوّدت حتت منه على جنب الشط"

قاطعها (سعيد) في صدمة: "مخدتش بالي إن فيه ترعة وراها!!"

(هدايا): "هي الفيلا دي.. عشان كنت زمان بشتري سمك من هناك، حتى كنت بشوف الراجل اللي بيحرس الشونة دي"، ثم أردفت: "عشان كده مكنتش عاوزة أحكي.. بس كان لازم تعرف.. أهو غار في داهية تاخده وخد جزاؤه"

نظر (سعيد) إلى هاتفه، وجد (نبيل) قد ضرب رقمًا قياسيًا في مكالماته، فلم يعبأ له.

ورغم الرعب الذي اعتراه من قصة (هدايا)، إلا وهو سعيد بوجوده في حضنها.

تذكر (سعيد) سؤالًا مهمًا: "مامتك عاملة إيه؟"

(هدايا) بصوت حزين: "الله يرحمها.. من يوم ما مشي المعفن

ومرجعش، وأنا ما بين زيارة أمي، وإني أطّقس على حكاية الفيلا... الله يسامحها كانت هي السبب في اللي أنا فيه هي وأبويا"

(سعيد) مربتًا عليها بحنان: "معلش... الله يرحمها"، ثم ضمها بقبلة في وجنتها، وفرك كتفها الناصع البياض بأصابع كفه الدافئة، لتشعر (هدايا) معه بالأمان.

*****

مرت أحداث قصة (هدايا) على (سعيد)، ولم يدر لماذا تذكر ذلك الشخص الغريب كثير التلفّت، الذي قابله (هو) و(نبيل) أول يوم استلام لوظيفته، فخمّن أنه ذات الشخص، فأطرق برأسه ناحيتها ليتأكد أنها مستيقظة، فوجدها فاتحةً عينيها نصف فتحة، تنظر لتلك اللوحة المقلوبة، ويبدو أنها تذكرت ما مرت به من آلام جسدية ونفسية.

فأوقف تأملها بسؤال: "قلتيلي الراجل اللي اتجنن ده شكله عامل إزاي؟؟"

دارت (هدايا) بعينيها ناحية (سعيد) بقلق: "راجل عادي تحس إنه بضب كده"

(سعيد) مندهشًا: "انتي بتتكلمي بجد!؟"

(هدايا): "يعني سايب كل القصة وجيت على دي وتستغرب وتسألني إن كنت بتكلم بجد ولا لأ!!؟"

(سعيد) متحيراَ: "أصل (أنا) و(نبيل) تقريبا قابلناه قبل الشونة واستغربنا شكله، وكان هيرغِي معانا بس نفّضناله و(نبيل) عفر عليه تراب و سابه وهو بيسبلنا"

(هدايا): "بجد!؟"

(سعيد) وهو يتذكر جملة الرجل غير المكتملة: (خلي بالك....) محدّثًا هدايا: "والله بجد وشكله كان بيحذّرنا"

(هدايا) مكملة أوصاف الرجل: "بجلابية معفنة وشعره طويل صح؟"

(سعيد): "مركزتش.. بس كان لابس جلابية.. الدنيا كانت ضلمة"

(هدايا): "يبقى هو"

نظر (سعيد) إلى هاتفه مرة أخرى ليطّلع على الوقت: "يااه دانا هتأخر كده!"، ثم طبع قبلة على خد (هدايا) وهم بالنهوض مرتدياً ملابسه، لتنظر له (هدايا) بإحباط قائلة: "يوووه هتسيبني لوحدي كده!؟"

(سعيد): "هجيلك بكرة"

(هدايا): "كنا عاوزين نشتريلك لبس"

(سعيد): "بكرة يا ستي"

(هدايا): "تجيلي بالسلامة"، ثم نظرت إلى ساعة الحائط وتساءلت: "بس انت رايح بدري ليه!؟"

(سعيد) وكأن اجابته حاضرة: "أنا و(نبيل) متخانقين وهَلبس كده في المواصلات"

(هدايا): " خلاص نتصل بالسواق يودّيك؟"

(سعيد): "لأ.. متتعبيش نفسك يا حبيبتي مش مستاهلة"

(هدايا): "ها توحشني"

(سعيد) وهو يطلق قبلة في الهواء مبتعدًا: "وانتي أكتر"

(هدايا) كمن تذكرت: "خُد معاك مفتاح الشقة الاستبن.. هتلاقيه متعلّق على مسمار جنب الباب"

أومأ لها وأغلق الباب مغادرًا، وابتسمت (هدايا) متثائبة، وأغلقت جفونها لتكمل نومها، وهي تشعر من داخلها باحتياجها للنوم معترفة بنومتها الثقيلة.

*****

على الفور انطلق (سعيد) إلى شقته فاتحًا بابها، فوجد شخصا بجانب النافذة! كاد يتوقف قلبه لكن اتضح أنه (نبيل)!

(سعيد) متنهدًا: "يخربيتك وقّفت قلبي!"

بادره (نبيل): "لسة زعلان!؟"

(سعيد) بحدة: "لأ"

(نبيل): "طب ليه ما بتردش عليا يا (سعيد)!؟ كلمتك أكتر من

ميتين مرة"

تلجلج (سعيد): "أصل كنت نايم وناسي إن الموبايل صامت"

قاطعه (نبيل): "يا راجل!؟ مفروض أصدّقك وانت بتهته كده!!؟"

صاح سعيد: "جرى إيه يا (نبيل)!؟ ما تبقاش كده يا عم!؟ دانت غلبت النسوان يا جدع في الغيرة"

(نبيل) ساخراَ: "النسوان!؟ هههههه.. دول اللي هايجيبوك الأرض يا هَفأ... انت فاكر بأة (هدايا) دي بتموت في دباديبك!؟"

نظر (سعيد) بغضب وثقة وقال: "طبعًا!"

(نبيل) بثبات: "تحب أثبتلك العكس؟"

(سعيد) مغتاظًا وثقته بدأت تهتز: "اثبت!"

(نبيل) ببرود وثقة: "ولو كسبت الرهان!؟"

(سعيد) محاولا الثبات في حديثه: "قصدك: ولو خسرت!؟"

(نبيل): "يبقى أنا برة حياتك، ولو إنها صعبة، بس كلمة الراجل سيف على رقبته"

(سعيد): "موافق"

(نبيل): "احنا لسة صحاب لغاية الرهان ما يوصّلنا لإيه.. البس بأة هوصلك شغلك وقريب هاورّيك إنّي صح!"

(سعيد) وقد ساوره الشك في (هدايا) من أسلوب (نبيل) الواثق من نفسه: "ماشي!"، وقد تسارعت نبضات قلبه يتمنى عكس هواجسه، وجف اللعاب بفمه، واتته بعض الأسئلة التي فعّمت هذا الشك بداخله: "لماذا وافقت على مرافقته دون الزواج منه في الحال!؟ هل لحبه والتأكد أنها ملكه؟ أم لمتعتها الشخصية وإطعام كبتها الجائع؟"

ثم تذكر تحذير (لمياء) منها، التي بدا حديثها نابعًا بصدق من قلبها وتصريحها بحبها له في تأثر شديد!!

ظل يفكر في الأمر حتى خرج دون النظر لنافذتها، وقد قرر التوقف فعلا عن روتينه معها حتى يثبت خطأ (نبيل) واتهامه الباطل لـ(هدايا)، ثم بدأ يفكر أن صداقته بـ(نبيل) باتت غير مريحة، وقد بدأت تثير غثيانه.

*****

انطلقت السيارة نحو شونة القطن، لكن (سعيد) صاح لـ(نبيل) بقرف: "نزّلني هنا لو سمحت!"

(نبيل) بنظرة الثقة التي هزّت (سعيد) وببرود: "طيّب"

تعود (سعيد) من (نبيل) أن يسأله عن ما يجري في وظيفته، لكن لم تحدث تلك المرة، إذ سارت علاقتهما في التفكك تدريجياَ، وأيضا لم يسأله عن سبب وقوفه قبل الفيلا، لكن (سعيد) بادر بقوله: "عاوز أتمشّى شوية لوحدي"

(نبيل) وهو يوقف السيارة مشيرا بابتسامة خبيثة له بالخروج:

"محدّش سألك.. اتفضل"

نظر (سعيد) بغلّ ناحيته، يفكر أن ينهال عليه ولأول مرة باللكمات، لكنه ينتظر خطأ رهانه، وفي لحظتها ستكون الفرقة تامة بينهما.

ثم لفظ (سعيد) كلمته: "ماكنتش أعرف إنك عيل وسخ كده! بعد كل السنين دي بتبتزّني وتستفزّني!!؟"

(نبيل) بهدوء: "(سعيد).. انت ظالمني دايما كده، وفي الآخر بطلع صاحبك الأنتيم اللي مجابتوش ولّادة.. عموما الأيام بيننا، وساعتها يا صاحبي هتعرف إن عندي حق وهتعتذرلي"

(سعيد) مضْطَربا وعيناه تملؤهما الشرر: "هنشوف"

(نبيل) بلهجة تحذيرية: "هدايا دي مَرَهْ يا (سعيد)... مَره هتفرق بين اتنين رجالة... خلّي بالك... معزّتي ليك مالهاش آخر و....

لم ينتظر (سعيد) تكملة حديث (نبيل)؛ إذْ ترجّل من السيارة وأغلق بابها بعنف وانتقام، ردًّا على سفالته التي وُصف بها، ليكحت (نبيل) بإطارات سيارته مبتعدًا، وقد أغاظته تلك الحركة، وينوي على شر خبيث لـ(سعيد) و(هدايا).

*****

دلف (سعيد) وسط أكوام القطن المشوّنة وسط الظلام يهتدي بكشاف هاتفه، ليجد (رجلا) ينام بجلباب رَث ومثقوب، وآثار جراح قديمة تظهر من بين ثنايا تلك الثقوب.

فاقترب من (الرجل) ليوقظه: "انت يا عم!"

استيقظ (الرجل) مفزوعًا: "مين!؟"

(سعيد): "أنا سعيد"

هدأ (الرجل)، ثم نظر له متفحصًا: "عاوز إيه!؟ امشي من هنا!"

وكأن (سعيد) لم يسمع جملته، ولكن بدا له أن الرجل عاقل: "فاكر صاحبي لما سألك عن الفيلا المهجورة طريقها منين، وعفّر عليك تراب؟؟"

بدأ (الرجل) يعتدل في جلسته ولا ينطق، وكأنه لم يتذكر.

(سعيد): "حاول تفتكرني.. طب بص مش مهم.. الفيلا المهجورة"

(الرجل) بهستيريا: "(الفيلا)! (الفيلا)! آه! عفريت (عم صفوت) و(عزت)!"، ثم شرع في وصلة بكاء فهدّأه (سعيد): "اهدا بس يا عم"

أحس (سعيد) بعدم اتزان عقل الرجل برمته، وقد زادت حالته عن ذي قبل عندما قابله، ولا فائدة من استجوابه بالمرة، لذا أعطى له نقودًا وودّعه، خاصةً أن الساعة اقتربت إلى العاشرة.

لكن استوقفته كلمة للرجل وسط العشرات من الكلمات غير المفهومة التي بدأ يتمتم بها: "(التمثال جوّة)!؟"

(سعيد): "(تمثال)!!؟؟" ثم فكر مخمنا بأنه يقصد (المانيكان).

عاد (سعيد) للرجل بسرعة: "(تمثال) إيه؟؟ يعني إيه؟؟ تقصد

(المانيكان)؟؟"

نظر (الرجل) إليه وهو يكرر: "بيتحرَك.. والله بيتحرَك"

تعجّب (سعيد) من كلمة الرجل. لطالما شك بهذا (المانيكان). أحس أن به سرًا خفيًا وسط العشرات من الأسرار داخل تلك (الفيلا)! ثم نظر إلى (الرجل) الذي أحبطه من صعوبة تجاوبه، فتركه لحالته التي يرثى لها، وقد اشتدت أعصابه ما بين قصة (هدايا) وما بين سر تلك (الفيلا)، وهو يدرك أنه مر بيوم عصيب لم يكتمل بعد؛ فنوبة عمل جديدة ستبدأ للتو. وطرق باب الفيلا...

*****

(قدري): "إزيّك يا (سعيد)؟"

(سعيد): "كويس"

(قدري): "(داليا) نايمة"

(سعيد): "نايمة!؟"

(قدري): "آه... ما تصحّيهاش لغاية بكرة اقعد بس خلي بالك منها"

أومأ له (سعيد)، وقد أحس بفراغ وقته ليسمح له بالبحث عن غموض تلك الفيلا، ثم تفحص (المانيكان) بدقة أكثر عن ذي قبل، فوجد عينيه حمراوتين، وهو يلف حول نفسه، يبدو كأنه يريد الهروب من هنا لكنه متخشّب مكانه، ثم لامسه بيديه

حين غفلة من الجد، فوجده (مانيكان) طبيعي ليس به أي غرابة، ماعدا مشهده البشع ليدل على مرض فكري لصانعه.

(قدري): "فيه حاجة غريبة في التمثال ده شدّاك؟"

(سعيد): "لأ هو بس عامل زي ما يكون واحد واقف بس خايف"

هذه المرة كان (المانيكان) مختلفا.

لقد كان يرتدي تلك العباءة السوداء الغريبة! ليلتفت (المانيكان) برأسه وينظر له!

*****

تيبس (سعيد) مكانه!

فجاءه صوت (الجد قدري) الغليظ مناديًا: "سعيد!!؟"

انتبه (سعيد) وقد كان يتخيل حركة (المانيكان)، فانتفض فزعًا.

سأله (قدري): "فيه حاجة تانية شداك!؟"

(سعيد) مبتلعًا ريقه وقد أحس بحقيقة ما رآه للحظة: "لأ مفيش!"

أحس أن كوابيسه قد بدأت في الظهور مجددا، بلا نوم تتجسد في يقظته، وقد بدأت تتخلخل واقعيته، وأن (لمياء) على حق، والتي بدت ملغّزَةْ بلا حلول.

ثم أشار للـ(جد) مستئذنًا منه بالصعود، فأومأ له الثاني.

صعد (سعيد) لامحًا النافذة الخلفية للفيلا، ثم سمع (الجد) وهو يهبط للمخزن، فاتجه نحو النافذة وفتحها، ليشاهد بالفعل الفيلا مطلّة على ترعة فسيحة مخيفة ومظلمة، يكاد يراها أو يشعر بها وبرائحتها الكريهة، تتصارع بجانبها الضفادع بأصوات لها صدى عال وواضح كضفدع عملاق، فأحس بالتوتر وأغلق النافذة بالكامل بعد أن كانت نصف مفتوحة.

ثم أكمل صعوده مارًا بحجرة (داليا) النائمة بملامح جديدة. لقد بدأ يتقبل هذا الموضوع بصدر رحب لكن بعقل غير رحب، يكاد ينفجر من كثرة التفكير والتساؤلات، كيف تتغير ملامح البنت كل يومٍ!؟ ولماذا صرخت بالصباح بعد أول ليلة!؟ هل شاهدت كابوسا أم ماذا!؟

ساقه فضوله نحو الطابق الثالث لأعلى ليشاهد ما به، فاطمأن من غرق البنت في نومها أولا ثم صعد بهدوء وحذر.

*****

نظر (سعيد) فوجد حجرة واحدة فقط بابها موصد تمامًا بلا مقبض، وكأنها مقصودة، وكانت لـ(سعيد) فرصة أن ينظر عبر فتحة المفتاح وأن يتطرّق بأذنيه ليستمع، كان في حيرة أيسمع أولا أم ينظر.

فاختار السمع، بعد أن أغلق النافذة الأخرى العلوية المطلة على الساحة الخلفية للفيلا، ليعم الصمت والهدوء التام على أرجاء الطابق.

ثم سند بأذنيه ليستمع إلى الصمت، ثم نظر عبر الفتحة فوجد

ظلامًا دامسًا.

انتظر قليلا ينظر في حيرة نحو الباب وهو يتحسسه من جميع الجوانب، ثم طرق بهدوء.. لا إجابة!

ثم التفت إلى درجات السلم هابطًا، عندما سمع كالون الباب وهو يفتح ببطء شديد وقاتل.

توقف محله من الرعب، وداعبه فضوله لينظر.

فالتفت للوراء لينظر، فوجد باب الحجرة مفتوحًا نصف فتحة، وما وراءه ظلام، فاقترب بحذر شديد وهو ينادي بصوت منبوح: "حد هنا؟"، ولكن كلّما اقترب يُغلق الباب أمامه، كلما اقترب يزداد غلقًا كرد فعل لاقترابه.

أحس (سعيد) بالحيرة. ابتعد مرة أخرى، فانفتح الباب، لكنه خاف وظل واقفًا مكانه في صمت يدرك أنه إذا اقترب سينغلق الباب.

ظل ينتظر بعيدا لبرهة في حيرة.

إلى أن قفزت عليه فجأة تلك (الدمية البشعة) كأنها تباغته من وراء ظلام الحجرة، فصرخ (سعيد) متعرقلًا ومتدحرجًا هابطًا بها الدرجات متخبطًا برأسه في ألم شديد، وبجانبه سقطت (الدمية) رأسها ملفوفة، لتنظر له وهي تبتسم ببشاعتها، وفي هدوء تام تنظر له ببرود!

استفاق (سعيد) من صدمته، لا يدري هل قفزت عليه الدمية

أم ألقاها عليه شخص ما، فظن الأمر الثاني، وقد أدرك ما صدر عنه من أصوات ملفتة للسمع.

ثم أسرع ناهضًا وعارجًا نحو غرفة (داليا)، ملتقطًا الدمية بتلقائية لإخفاء أي دليل، مغلقًا الباب من خلفه!

وذلك عندما سمع صوت باب المخزن وصوت خطوات (الجد) تقترب، ليفتح باب حجرة (داليا) ويشاهد سعيد جالسا على الأريكة.

التفت (سعيد) مفتعلًا ابتسامة باهتة: "اتكعبلت في العروسة"

(داليا) وقد استيقظت: "(عمو سعيد)! لقيتها فين دي كانت ضايعة مني!؟؟"

وبرد فعل تلقائي ناولها لـ(داليا): "أهي يا (داليا).. كملي نوم بأة وهي في حضنك"

راقب (الجد) ردود فعل (سعيد) بشك، ثم خرج دون رد.

تنفّس (سعيد) الصعداء، ثم تأوّه بصوت ضعيف؛ لقد التوت قدمه إثر تلك السقطة، فأخذ يدلّكها برفق حتى أذهب الألم، و قد أثّر عليه فأغلق عينيه وذهب إلى النوم، جالسًا.

وقد بدأت الكوابيس تعود إليه! من يوم واحد قد خلت منه الكوابيس، وقد ظن أنها نهايتها، لكنها عادت تضربه أقوى!

*****

انتفض (سعيد) الساعة السادسة صباحًا، لشعوره بـ(داليا) أمامه وهي تحاول إيقاظه: "(عمو سعيد)... (عمو سعيد).. مالك!؟؟؟"

(سعيد): "مالي!؟"

(داليا): "(عمو) انت كنت بتعيط وانت ساكت"

(سعيد) متعجبًا: "بعيّط وأنا ساكت إزاي!؟؟"

(داليا): "عينيك بتنزّل دموع بس من غير صوت"

(سعيد) وقد أدرك أنه رد فعل من الكوابيس، شاكرًا لـ(داليا) على إيقاظه وإنقاذه منها، قائلًا: "معلش أصل عيني واجعاني شويّة"

ثم نظر للساعة فوجدها السادسة: "يااه! (داليا) لازم تكمّلي نوم"

(داليا): "العب معايا شوية.. عاوزة ألعب معاك بالعروسة"

(سعيد) وهو ينظر لتلك الدمية يكاد يقسم باحتمالية أنها كانت حية وقد قفزت عليه أمس: "لمّا تصحي هنلعب"

تأففت (البنت) ذاهبة لسريرها، واحتضنت الدمية في صمت وأغمضت عينيها، ثم سرعان ما عادت وفتحتهما معتدلة في جلستها: "(عمو سعيد) أنا خايفة من (جدو) أوي"

هدأ (سعيد) من روعها: "متخافيش ده (جدو) حبيبك"

(داليا): "أنا حرّانة أوي مش عاوزه استغطّي"، ثم نظرت لأعلى نحو مروحة ذات ريش، متآكلة قديمة لكن تفي بالغرض.

قام (سعيد) وقام بتشغيل مروحة السقف، والتي تغطي أغلبها خيوط العنكبوت، ثم سألها: "طب مش عاوزة تعملي حمام؟"

هزت رأسها وهي مغمضة بــ(لا).

تنهد (سعيد) وقد طار منه النوم، ثم خرج إلى الطرقة لينظر أسفلها إلى (المانيكان) بتلك العباءة، وقد توقفت حركته عن الدوران الاستعراضي.

تذكر سعيد إعلان الجريدة الغامضة، والذي كان يقصد بحق من اشتراط عدم الفضول؛ لأن فضوله كاد يقتله ساقطًا من فوق الدَرَج.

فقرر أن يبتعد عن فضوله، وعن (نبيل) أيضا خطوة بخطوة، وستظهر الحقائق بذاتها.. كما يأمل.

وفجأة اشتم رائحة دخان، فشاهد انبعاثه بكثافة من غرفة (داليا)، فبرقت عيناه من الفزع، وانطلق يعدو تجاهها ليشاهد الحجرة قد نشبت بها النيران. تسارعت نبضات قلبه، وصرخ بكل ما أوتي من قوة ورعب: "دالياااا!!!!"

*****

(٥)

المكنون

رغم أن (لمياء) كانت تشاهد العجوز قريبة منها، إلا أنها عانت للوصول إليها، وبمجرد أن اقتربت منها أمسكتها بقوة شديدة كادت تعتصرها، وقد أحست أنها نهايتها؛ إذ قادتها نفسها إلى الهلاك وقد كانت وظيفتها مرسالًا تقرأ ما يُدوّن وتعمل على تجميع الصفحات فقط في رف عتيق داخل قبر جدتها، لكنها تتلقى عقوبتها بسبب الحب وتدخّلها في مصير (سعيد). تساءلت كيف سيتم معاقبتها!

وأتاها الجواب فجأة، عندما نظرت (العجوز) لها وأغمضت عينيها، لتتحرر من تلك الأنابيب، التي تحركت كالثعابين ناحية (لمياء) لتغرز إبرها الغليظة فيها، وهي تصرخ مستغيثة، و(العجوز) تتحسن بشرتها وتُنتزع منها الأربطة، وتظهر بمظهر جيد جدًّا.

وبدأت حديثها بلا مقدمات: "أهلا بيكي يا (لمياء)... في (تدوين المكنون)"

صرخت (لمياء) من ألم الغرز، والدماء تنبثق منها لتلطخ الجدران من حولها، وقد أحست أن عقابها بأنها ستدمي حتى الموت.

راقبت (العجوز) تلك الأنابيب وهي تتلوى من خلف (لمياء)، فشرحت لها الوضع: "المكنون بيربطك وبيقيدك"

(لمياء) وهي تنظر نظرة مشتتة ممزوجة بالرعب والألم التدريجي: "مش فاهمة"

قالت (العجوز): "أنا دوري كان تدوين للأحداث اللي حصلت وبتحصل، وعمري ما بتحكم في مشيئة أو مصير أو أشوف المستقبل.. كنت هنا بقدر أشوف كل حاجة من جوة النفس البشرية الأمّارة بالسوء اللي ممكن تودي صاحبها للهلاك.. الفضول جواها بيصيبها وبيزيد زي الطاعون"

"أضعف النفوس اللي بتبقى وسيط لغوي ما بين الشيطان وصاحبها، الشيطان بيشوف هواها فين وبيغريها، وهي بتترجمه لصاحبها اللي بينفذ من غير تحكم"

صرخت (لمياء): "أنا ماليش دعوة بحد.. أنا عاوزة أخرج من هنا!"

ضحكت (العجوز): "مش لما تعرفي كل حاجة ممكن تقبلي بقدرك ده اللي وصلتيه؟"، ثم ابتلعت ريقها ونظرت لها مبتِسمة: "انتي دلوقتي ليكي دور جديد.. على الأقل فيه حد يعرِفك"

تعجبت لمياء، عندما أكملت العجوز وقد تبدلت نظرتها للبؤس: "أنا روحي جت هنا غصبن عني لما اكتشفت إني غمّضت للموت"

(لمياء): "يعني انتي مُتّي!؟"

نظرت (العجوز) لها: "لأ.. غيبوبة ومصيري كان زيّك، مربوطة

بالأنابيب.. أينعم روح بس بتحسّي بالألم. كنت (مرسالة) للـ(مدون) اللي كان قبلي وجيت خدت مكانه من شهر.. اتمنيت مرسال ييجي وينقذني وروحه تحل محل روحي وأبقي حرّة، وانتي جيتي"

ثم تنهدت مكمّلة باشمئزاز: "وانتي في المكان ده هتشوفي كمية فساد و قباحة للنفس البشرية مش هتُخطر على بالك، ١٠٠ قصة، ١٠٠ حكاية.. هتحزني لما تعرفي أد إيه نفوسنا قذرة بالشكل ده"

ثم صمتت وبدا عليها الندم عندما أكملت: "لما كنت مرسالة، كنت بتابع اللي بيحصل وباخد الصفحات اللي بيكتبها (المدون) معايا.. والأفكار اللي هنا مُتعمّق فيها فعلًا وما تُخطرش على البال.. نفوس بتخطط للشر بس من غير ما تحس.. طباع مكنونة"

"لدرجة إني بقيت مشهورة بتأليف روايات الرعب.. ما هو الشر مرعب دايمًا.. وبقى اسمي مشهور على كل لسان"

"الناس بقت تقول: الكاتبة اللي أفكارها مش متوقعة، الشريرة، المميتة، حسّيت إني بدأت أنقل أفكار شر جديدة للناس من غير ما أحس، كأني شيطانة بس بهيئة بشرية"

"لغاية ما وقعت في شر أعمالي، وبقيت ضحية للخسّة والندالة من (خطيب بنتي)، اللي طول عمري كنت بكرهه ومش مقتنعة بيه "

"لما اكتشفت في صفحة من الصفحات اللي قريتها إنه ناوي على

شر لـ(بنتي)، خُفت عليها واضطرّيت أضحّي بنفسي، واتدخلت طبعًا عشان أنقذ (بنتي) منه، بس كان هو أسرع مني، سبقني، ووقعت بسببه في غيبوبة، وبقيت (المدونة) عشان كرهت حد" ثم ضحكت وأشارت لها مكملةً: "أمّا انتي عشان حبيتي حد... مهما اختلفت الأحاسيس النفس ما بتتغيرش"

صرخت (لمياء) محاولة التحرر وهي ترتعد.

اقتربت منها العجوز وربتت عليها متنهّدة: "صدقيني هتكتشفي قد إيه انتي في أمان هنا، ومسيرك هييجي (المرسال) اللي هيحررك.. كل (مدوّن) له (مرسال).. صدقيني فضوله هيجيبه هنا من غير إرادته أو بإرادته.. كلها مسألة وقت"

بكت (لمياء) متوسلة تحاول الملاص من تلك الأنابيب: "أرجوكي أنا عاوزة أخرج.. كل ذنبي إني حبيت واحد!؟"

أجابتها (العجِوز): "عشان كنتي هتتدخّلي في مصيره وتغييره، مسيرك هتتقبلي قدرك لما تشوفي كل حاجة"

صرخت (لمياء): "مش عاوزه!"

ضحكت (العجوز) بخبث: "مش عاوزة تعرفي حصل إيه وهيحصل إيه لحبيبك!؟ مش عاوزة تعرفي إن كان بيحبك ولا لأ!؟؟ دلوقتي هتشوفي بعينيكي مش محتاجة تستني تقري صفحة بصفحة كل يوم.. الأحداث كلها قدامك ماضيها وحاضرها، أرشيف من زمان لغاية دلوقتي!"

صمتت (لمياء)، وقد هدأت واقتنعت بعض الشيء، وبدأت

تتقبل الوضع، ثم نادت في سرّها: "(سعيد)... "، وكأن النطق باسمه أنساها ما آلت إليه.

ثم أحست فجأة بتدفق غريب يسري إليها عبر الأنابيب، وكأن الشر يتدفق كالسوائل ليمر داخلها لتشعر به، وكأن الأحداث توجهها لما تراه، وهي تبكي بالدماء، وتتحول إلى ذات الهيئة المخيفة للمدوّنين كلما ازداد التدفق مارًا بجسدها ويؤثر عليها، وما باليد حيلة غير التدوين على آلتها الكاتبة.

التفتت لمياء إلى النافذة المجاورة لها وهي في تلك الهيئة المخيفة، وعيناها الداميتان الحزينتان تطلان خارجها، كأنها تنتظر (مرسالا) قادمًا ليخطئ ويحل محلها.

أما (العجوز)، فنظرت نظرة أخيرة إلى (لمياء)، قبل أن تختم حديثها: "هقولك سر، (التدوين) ده حريتك.. مش كل حاجة بتشوفيها تكتبيها.. لعبتك إنك تخدعي (المرسال) وتثيري فضوله أو عاطفته عشان يحل محلك!"، ثم ابتسمت بخبث بيّن!

برقت عينا (لمياء) من الصدمة.. لقد فهمت الأمر! فما قرأته في الصفحات به خدعة ما، وقد أخفت (العجوز) عنها بعض الحقائق بقصد ما جعلها تنساق بعواطفها إلى هنا. لقد نصبت لها مصيدة وضللتها، وهذه ثغرة في قوانين المكنون.

ثم صرخت (للعجوز) بغيظ صرخة لا مسمع ولا منجي لها، كأنها تلومها على فعلتها الخبيثة.

*****

فكرت (العجوز) أنها أخطأت في حق (لمياء) بإخفاء الحقيقة

واستدراجها نحو الهاوية، لكنها أدركت أنها لن تنجو بفعلتها؛ إذ تقدمت نحو باب غريب محاط بالأسلاك، وهي تستمع إلى أصوات أجهزة المشفى وصوت تنفسها الضعيف.

تستمع إلى صوت (ابنتها)، التي تبكي بحرقة على ما وصلت إليه.

ثم مر عليها في مشاهد سريعة ما اكتشفته عن خطيب ابنتها النذل، الذي ادّعى أنه يعمل مهندسًا، وبناء على عدم الاقتناع به قامت بالتحري عنه فتوصلت أنه كان مُتبنى لدى أسرة فقيرة، وأن والديه الحقيقيين قد توفيا في حادثة زلزال رهيبة، كان لهذا الأثر في اسوداد نفسه، وإحساسه الدائم بالنقص.

ولطمعه ف الميراث بعد الزواج، أراد أن يتغدّى بـ(العجوز) قبل أن تتعشى هي بهذا الأفّاق، وقبل أن تكشف عن شخصيته الحقيقية لابنتها، التي ينوي إلحاق الأذى بها خوفًا على نفسه بأن يتلاشى عنه حلم الميراث.

فاستغل وقفة (العجوز) في ميعاد محدد ومعروف لها على شرفة الطابق الثاني بالفيلا، مدعيا سفره في مأمورية عمل كدفع لعذر غيابه، وفي خفية تامة تسلل ودفع بها من أعلى الشرفة بدم بارد، لتسقط على كتلة من الرمال، كان لها الأثر في إنقاذها، ومنها إلى غيبوبة دامت قرابة الشهر، استغل (المكنون) روحها ليطبّق عليها القانون بحذافيره، منتهية بـ(مدوّنة) لأصول الشر، بعد أن كانت تقتبس منها في رواياتها، كطباخ السم الذي يتذوّق منه، فدائما ما تتحقق تلك المقولة!

*****

ثم سارت في تلك الطرقة وهي تستمع إلى حديث (ابنتها) مع الطبيب، الذي يؤكد لها أن الأمل قد بدأ في الزوال وأنها تموت.

فأسرعت الخُطى، وصولًا إلى باب يشبه الجفون المغلقة، شدت الرموش لأعلى، ليضيء المكان من حولها.

وبدأت نبضات القلب في التسارع، ويتعرج الخط في موجات على شاشة جهاز قراءة النبض!

*****

في تلك اللحظة، دخل الرائد (فوزي النخل) ضابط المباحث المعين بالقضية، والمسئول بكشف غموض تلك الواقعة، إلى حجرة (العجوز) النائمة ليطمئن عليها، ليشاهد صياح (الابنة) بشوق ولهفة عقب إفاقة (أمها): "ماما حبيبتي!!"

استيقظت (العجوز) من نومتها الطويلة بشهقة، خالعة جهاز التنفس.

أسرع (الطبيب) لفحصها غير مصدق، والتي شدّتْ ابنتها وصدمتها صدمة الحياة، والتي أنهت على فرحتها، وبصوت متهدج: "خطيبك.. هو اللي زقّني... خطيبك قتلني"

استمع (ضابط الشرطة) لهذه العبارة، غير مصدق أن لغز القضية تم حله بهذه السرعة!

وعلى الفور تذكر حديث (الممرضين) عن (رجل) مهووس بـ(العجوز)، لعله محب لكتاباتها، يرتدي جاكيت أسود بقلنسوة، دائما ما يزورها ويطمئن عليها من بعيد، يقدم

السجائر ببزغ رهيب لِيستجمع أية معلومة، ولا يستطيع الاقتراب للاطمئنان بناء على التعليمات، وبسبب الحراسة لشبهة السقوط الجنائية، فقطع حبل أفكاره صراخ (ابنة العجوز) وهي تقول لها: "قولي الشهادة يا ماما!"

همست (العجوز) بالشهادة وهي تسعل برفق، حتى رجعت للوراء ولفظت أنفاسها الأخيرة، وروحها تنساب إلى بارئها، وثبتت عيناها عن الارتجاف، تنسال منها دمعة ندم مارة علىِ خدها المحبب، لتمتصها ملاءة وسادتها، بعد رحلة دامت شهرا وعادت منها بأعجوبة، لتتوب عن شر صنيعها في خمس دقائق، لعلها توبة مقبولة، ولتحذّر ابنتها.

*****

أمسك (الرائد فوزي) جهاز اللاسلكي محدّثًا (الأمين بدوي): "بدوي!"

(بدوي) مجيباَ: "اؤمر يا (فوزي) باشا"

(فوزي) بانفعال: "حالًا قفّلّي مداخل ومخارج المستشفى.. متخلّيش حد يخرج منها مهمًا كان.. وبلغني وبلغ حالة استعداد.. (القاتل) هنا.. كان بيتابع الحالة"

وبالفعل، في أقل من خمس دقائق، كانت المستشفى مؤمنة ومغلقة من مداخلها ومخارجها، وتم توزيع القوات على جميع ثغراتها، ثم اتجه (فوزي) مسرعا نحو (الممرضين) وسألهم عن مواصفات هذا (المهووس) كثير الأسئلة عن تلك (الكاتبة المشهورة).

بمجرد تلقيه تلك المواصفات، بلّغها للـ(الأمين بدوي) بالأسفل، لكنه لم يكمل عبارته؛ إذ لمح ذلك (الشخص الغريب) الذي يرتدي بالطو الطبيب أعلى الجاكيت الأسود، مغطياَ رأسه بتلك القلنسوة، ويسرع نحو سلم الطوارئ.

فأشار (فوزي) لقوته بأن تتبعه مُخرجًا سلاحه، ثم انطلق خلف ذاك الشخص المسرع على يقين أنه (المهندس القاتل)، صائحًا فيه: "استنى عندك!"

لم يستجب (الشخص) له بل أسرع إلى أعلى.

وطارده (الضابط)، حتى فتح باب الطابق العلوي، ليشاهد هذا (الشخص) ماثلا على السور يعبث بهاتفه ويلقيه على الأرض، ثم تفحص اتجاهات المستشفى وصاح على اللاسلكي: "(بدوي)! كلِّم وحدة إنقاذ وإسعاف بسرعة! (الراجل) هينط من الجنب اليمين للمستشفي"

(بدوي): "الناس خدت بالها يا فندم... مستحيل نجيب وحدة إنقاذ"

(فوزي) متعصّبَا: "اشمعنى!؟ قولي السبب!"

(بدوي): "لو نط هيخبط سلوك الضغط اللي جنب المستشفى.. مستحيل حد يقدر يقف تحت عشان يفرشله ملاية حتى!!"

نفخ (فوزي) من الضيق، ثم ألقى بالجهاز إلى (أحد المجندّين) برفقته والذي تلقفه بنشاط، وأغمد مسدسه في الجراب وصاح في (المهندس) وهو يقترب: "هتعمل إيه يا مجنون!؟"

(المهندس): "محدّش يقرّب مني! هي فاقت مش كده؟؟ قالتلكم مين اللي عمل كده فيها؟؟"

اصطنع (فوزي) بأنه لا يعلم شيئًا: "مين اللي فاقت!؟ مش فاهم حاجة! أنا قُدامي واحد بيحاول ينتحر من سور سطوح المستشفى"

(المهندس): "ما تحاولش يا باشا ده انت جرِيت ورايا لغاية هنا! أنا سمعت الناس بتتكلم إنها فاقت وعرِفت بنتها... أيوة أنا اللي قتلتها"

لم ينتظر (فوزي) الكثير؛ إذ عزم (القاتل) أيضا أن يتذوّق من سمه الذي طبخه، بعد أن أرسل رسالة نصية لخطيبته يعتذر لها عمّا بدر منه، ثم ألقى بنفسه وسط صراخ الأهالي من الهلع.

هوى (المهندس) بجسده الثقيل، ليشتبك جسده بأسلاك الضغط محدثة فرقعة قوية، لتتناثر شرارات غزيرة كانت واضحة رغم النهار، صرخ على إثرها الجميع، لتتفحم الجثة وتلتصق نتيجة الكهرباء، حتى تيبست وجمدت الدماء بداخلها، ثم انسابت متحررة من الأسلاك، لتهبط بقوة على الأرض محدثةً رجّة عنيفة، رُجت لها القلوب من بشاعتها، ويخرج من فمه وأنفه وأذنه خيطًا أسود ملحوظًا من الدماء الغليظة، وفاحت منه رائحة الشواء، شمّها كل من حوله مخترقة أنوفهِم رغم محاولتهم الفاشلة لسدّها، ويتصاعد منها الدخّان متعرجًا.

نهاية أليمة للـ(مهندس) الذي زرع الشر وحصده لنفسه،

ولـلـ(عجوز) التي نقلت الشر وعلّمته لغيرها.

تناول (الرائد) الجهاز من (المجند)، وأمر قواته بعمل كردون حول موقع الانتحار لمنع الاقتراب أو التصوير إلا بإذن، ثم أبلغ بانتهاء وحل قضية (الكاتبة المشهورة) لـ(قياداته) بالتفصيل.

*****

تابعت (لمياء) نهاية (العجوز) و(المهندس)، غير مصدّقة تعمقها غير العادي في نفوسهم، وقد بدأ يروق لها الأمر، الذي ساعدها في إطفاء نار الفضول التي اعترتها، وخفف من حدة إحساسها بالعقوبة.

وبدأت تدوّن ما شاهدته، وقد أحست بسكرات موت (العجوز) واحتراق جسد (المهندس) تحت سلوك الضغط كأنها عاشت داخلهما، لتصف الأمر بالتفصيل، ثم قامت متحاملة رغم كم الأنابيب الملتصقة بها، ووضعت الصفحات المدونة على النافذة، ووقفت لحظة في انتظار (المرسال) القادم الذي لم يأتِ بعد.

ولم تشأ أن تنصب مصيدة لغيرها مثلما فعلت فيها (العجوز الخبيثة)، والتي لاقت حتفها جزاءً لذلك. آمنت أن هذا قدرها وسيأتي اليوم الذي تتحرر فيه على يد (مرسال) آخر لها، ليخالف القوانين أو يتطوع لتحل روحه محل روحها.

ولكن يبقى السؤال الذي يدور في خلدها: "إمتى ييجي؟؟"

ويبقى لها حل الغموض المحيط بـ(سعيد) بعد أن تدفق لها

سائل الشر لينبهها به، فأحست (لمياء) بتشوّق غير عادي يفوق الوصف لكشف تلك الحقائق التي أخفتها عنها (المدوّنة السابقة)... عن كل من:

★(هدايا) ★(نبيل) ★(قدري) و(حفيدته داليا)

★وأخيرا حلقة الوصل (سعيد) حبيبها، وقد أدركت أنه لا سبيل لإنقاذه في حالة الخطر، وأنه ليس في استطاعتها، متمنية أن يتذكر ويصدّق تحذيرها السابق من الخطر القادم إليه.

لذا رتّبت الأحداث التي عاشتها، وتحضّرت للاحقة، لتحاول ربط الغموض الذي يحيط بـ(سعيد) من كل جانب.

وعليها أن تتعلم كيف ستتابع الأحداث الماضية، والتي سبقت كينونتها كـ(مرسالة)، وبدأت بمتابعة (سعيد) وهو يسرع ناحية حجرة (داليا)، التي صرخت مستنجدة صباحًا لإنقاذها من الحريق.

*****

صرخ (سعيد) وهو يدخل: "داليااااا!!!!"

فصدمه مشهد تلك الحجرة التي تحترق بالكامل، و(المسكينة) تكاد تقترب النيران منها ومن (دميتها) التي تمسك بها، فالتقطهما بسرعة البرق، وقد لمح أن سبب الاحتراقِ هي تلك المروحة اللعينة القديمة، ومازالت تشرز شرزًا كهربائيًا ينتشر في أرجاء الحجرة في الحال.

فأسرع بالخارج، وهو يتابع حالة (داليا) التي فقدت وعيها، وانسابت من يدها (دميتها) التي ازداد وجهها اسودادًا وعبوسًا.

واتجه بها على الفور إلى دورة المياه، وقد واجهه (الجد قدري) مشدوهًا، والذي أسرع إلى الحجرة لمحاولة إخماد النيران.

أما هو، فكبش حفنة من ماء الصنبور وطسّها في وجه (الطفلة) لتفيق على الفور، ثم اطمأن عليها وهم بمساعدة (الجد) الذي دخل الحجرة ولم يعد منها حتى الآن.

*****

وبعد إخماد النيران مستخدمين مطفئتين للحريق.

نظر (الجد قدري) ببرود نحو الحجرة ليسأل (جليس حفيدته) بغلظة: "تقدر تقولي إيه اللي حصل؟؟"

(سعيد) لاهثًا وعيناه لا تفارقان الحجرة ناظرًا للمروحة، وهو يفصل مفتاحها الدائري الشكل منعا لكارثة أخرى: "معرفش.. بس تقريبًا المروحة دي عملت ماس كهربة"

(قدري): "امممم.. طيب (داليا) كويسة؟؟"

نظر (سعيد) متعجبًا، يتساءل أين مشاعر تلك (الرجل البارد)!؟ كان من المفترض أن يبدأ بالسؤال عنها قبل أي شيء! كيف لا يذهب إليها ويلتقطها في أحضانه حامدًا الله على سلامتها!؟ كيف لا يذرف لها دمعة!؟

كرر (قدري) السؤال، بينما ينحني (سعيد) ليلتقط (دميتها):

"كويسة"

(قدري) بهدوء مريب: "طب كويس.. انزل استناني تحت يا (سعيد)"

أحس (سعيد) بالغضب الشديد، لكنه لم ينبس ببنت شفة تعليقًا على برود رد فعل (الجد)، فناول (داليا) دميتها مبتسمًا لها ومطبطبًا على ظهرها، ومشيرا لها بأنه بالأسفل.

ثم هبط مارًا بذلك (المانيكان) الغريب ناظرًا إليه يستجديه، وكأنه يحمل إجابات ليس لها أول ولا آخر، كمن يطّلع على كل ما يدور بتلك (الفيلا) الغريبة؛ يشعر كالمجنون وكأنه سيسأله: "إيه اللي بيحصل هنا؟؟"

فيبادله (المانيكان) ذو الوحمة والجرح النافذ خلالها بالصمت.

ثم قطع حدّة الصمت هذه (الجد قدري) وهو يصيح: "(سعيد)!!"

التفت (سعيد) له!

فمد (قدري) يده مناولًا إياه ظرفًا مغلقًا: "شكرا على تعبك وإنقاذك لـ(داليا).. دول بقية المرتب.. أربع تلاف جنيه"

ذُهل (سعيد)، وأحس بنشوة رهيبة أنسته الكارثة، وهو يلتقط المبلغ محدثًا نفسه: "والله جم في وقتهم!"

ثم شكر (الجد): "ربنا يخليك يا (أستاذ قدري)"

(قدري): "تقدر تتفضل يا (سعيد)، وليك ٣ أيام أجازة عشان محتاج أبقى جنب (داليا) بنفسي"

(سعيد): "ده كرم منك والله... مع السلامة"

(قدري): "مع السلامة"

أحس (سعيد) بنية الطيران، وقد نسي همومه للحظة، لكنه تذكرها وهو في المواصلات، تذكر فجأة تعارفه على (لمياء)، حبه لـ(هدايا)، (نبيل) صديقه والذي انقلب ضده بسبب (هدايا)؛ حتى عاد للمنزل وهو مهموم مرة أخرى، وكلما نظر للنقود نسي همومه للحظة، وسرعان ما تطارده مرة أخرى، ففكر بتشتيت فكره بعَدْ النقود، فشرع يفتح المظروف.

*****

أخرج (سعيد) من جيبه زجاجة من الصمغ ليلصق بها ورقة من فئة المائة جنيه، وقد انتزعها عنوة بغير قصد من ربطتها، ثم أعادها مرة أخرى في جيبه، متحسسا جيبه الآخر ليشعر بشعر (الدمية) وقد اتخذ طريقه داخل جيبه، فلم يعبأ بهذا؛ فكثيرا ما يلملم شعرها المتساقط جراء تمشيط (داليا) لها، على سبيل التنظيف.

ثم قسّم ماله ووضعه في علبة خاصة بالنقود، وجدها في حجرة والديه.

ثم قرر أنه بمجرد انتهاء الرهان بينه وبين (نبيل) بانتصاره عليه، ستعود المياه لمجاريها ويعود لـ(هدايا)... ويتزوجها.

أما اليوم، فهو يشعر بشك ناحيتها، وفي انتظار إثبات (نبيل) لخيانتها وعدم حبها له...كما يدّعي.

لكن هاتفه لم يتوقف عن الرنين، فشاهد المتصل (هدايا).

وفجأة توقف الرنين، وإذا ببابه يطرق بعنف!

فانتفض مذعوراً: "مين!؟"

فجاءه صوت الطارق: "(هدايا) يا (سعيد).. افتح!"

قام (سعيد) بتنظيف سريع لما حوله؛ فالشقة قد تُوقِفْ قلب ضيوفها من هول مشهدها، مجيباً: "حاضر"

ثم أسرع نحو الباب مهندماً ملابسه، وفتحه ليشاهد (هدايا) وهي في أشد درجات جمالها، وقد صبغت خصلات من شعرها، وتزينت بطلاء أظافر يعكس صورة (سعيد) به.

(هدايا) بقلق: "مابتردّش ليه على التليفون!؟؟"

(سعيد): "متضايق شويّة"

(هدايا) بحزن: "ليه!؟"

أراد (سعيد) أن يصارحها بالحقيقة، لكنه آثر السكوت.

(هدايا) وهي تضع يديها على كتفه: "(سعيد).. مالك بقولك؟"

فكر (سعيد) أن يلقي مبرراً لهمه، فحكى لها قصة احتراق الحجرة، وأن (الفتاة) كادت تضيع لولا سرعته، وقد أحس

للحظة بفقدانها، وهذا ما همّه الآن.

تنهدت (هدايا)، وضمّت (سعيد) في أحضانها وهي تقول: "طول عمرك حنين.. وقّعت قلبي بحسب زعّلتك.. حمد لله على سلامتك"

ذرف (سعيد) الدمع، تتضارب الأفكار في ذهنه، إن كانت تحبه بصدق أم لا! لا يدري الآن ما الإجابة!

نظرت (هدايا) نحو شقته المبعثرة بذعر: "يااااه! ده أنا محتاجة ولا ١٠ سنين عشان واحدة زيّي تظبطلك الشقة دي من تاني! بس دلوقتي يلا بينا على شقّتي"

(سعيد): "نسيت أقولك.. أنا النهاردة أجازة"

تهللت أسارير (هدايا): "بجد!؟ طب كويس يلا بأة انت واحشني"

ضحك (سعيد) من وراء همه، وانساق معها كالريشة متجهين نحو شقتها.

كان الجو مبكرَا جدًا، لم يلمحهما أحد.

نظر (سعيد) لـ(هدايا)، التي لم تعد تبالي لقول أو نظرة أحد من حولها؛ فهي تعتبره زوجها المستقبلي.

ثم دفعته بالداخل، وغابت في الحمام خمس دقائق كافية لـ(سعيد) أن يخلع ملابسه، ثم بدأت تتلاقى حضارة شرق الحي مع غربه في ملحمة استغرقت عشر دقائق.

وأتاها (سعيد) بوابل من الأسئلة: "انتي بتحبّيني؟؟ نفسك تتجوزيني؟؟ شايفاني إيه بالنسبة ليكي؟؟"

وهي تجيب بإجابات نموذجية، جعلت شكّه يذوب ويتلاشى، متأكدا أن (نبيل) قد وتّره وشدّ من أعصابه ليزعزع الاستقرار بداخله من ناحيتها.

ومرت الليلة كشهر من العسل وبسلام حتى صباح اليوم التالي.

*****

استيقظ (سعيد) من نومته الهنيئة؛ فقد تأكد تماما أن وجود تلك (المرأة) في حياته قد أحل بداخله استقرارًا داخليًا بعيدًا عن كوابيسه التي لم ترحمه يومًا واحدًا.

لكنه اشتم رائحة كريهة جدا بغيضة، حاول البحث عن مصدرها، فوجد كمًا من الصراصير يسير على غير هُدى ملتفًا حول ورقة ممتلئة بالطعام الفاسد.

جال ببصره فإذا به في شقته!! فتساءل كيف أتى إلى هنا!؟ وكيف أتت تلك الحشرات المقرفة!؟

وأتته إجابة تساؤلاته في صندوق صغير بجانبه، مكتوب عليه: "حمد لله على سلامتك... افتح"

ففتح الصندوق، ليجد هاتفه وعليه خلفية شاشة لـ(هدايا) في غياهب نومها العميق، وهي في أحضان (نبيل)، ملتقطًا لهما صورة سيلفي.

ولج إلى معرض الصور، ليشاهد أكثر من صورة غيرها، وبأكثر من وضع.

أحس (سعيد) بصدمة نفسية فاقت الوصف وفاقت حالة

الاكتئاب التي عانى منها بعد وفاة والديه، وقد جف حلقه وهو يشرع في البكاء والنحيب غير المسموع، ويتمتم: "ليه!!؟ ليه!!؟ ليه!!؟"

وشفتاه ترتعدان وتتخبطان، ومازالتا تشعران بدفء شفتي (هدايا) اللتين اعتقد أنهما كانتا ملكه فقط!

سقط الهاتف منه عندما شعر بدوار يتغلغل في دماغه، وأعصابه قد ذبلت، ليجلس على الأرض مستكملًا بكاءه كالطفل وهو مغمض العينين، حتى أغرق وجهه بالدموع.

شُلّ تفكيره، تسطّح بجانبه على الأرض كالبردان، متقوقعًا ضامّا يديه بين ركبتيه، يشعر بقلبه وهو يبطئ كمن يقابل سكرات مخيفة من الموت، يتمنى أن ما يعيشه كابوس من تلك الكوابيس المدمّرة للعقل، حتى وإن لن يستيقظ منها بسهولة، فكُل همّه ألا تكون خيانة (هدايا) مع أعز الأصدقاء له شيئًا مُحققًا!

لكنه أدرك أنه يعيش واقعًا أليمًا بعد أن حاول أن يوقظ نفسه بشتى الطرق، وحين تأكد من يقظته أحس بثقل غريب في رأسه وعينيه، وهو ينظر لهاتفه كعادته إلى التاريخ أوّلًا، ليكتشف أنه مر يومان منذ لقائه الأخير بـ(هدايا)، فلم يفهم شيئًا! كيف جاء إلى هنا وكيف نام يومين كاملين!

بدأت تجف دموعه، وهو يُحمّل على قنواته الدمعية بكامل شجنه، وقد استغاثت منه فمن أين ستأتيه بالدموع!؟ حتى تلاصق جدارها وانسدت من الجفاف، واحمرت عيناه كالدم؛ يشعر بسخونة الغليان، ولا دموع ترطب من حدتها!

يتمنى بعدها أن يتلاشى من الحياة.

*****

تخيل هاتفه يرن ويهتز باسمها، مثلما مازال ينبض قلبه بها، وكأنه يقول لنفسه "أهذا جزاء الحب أن يقابله الخيانة مع من كان أعز صديق!؟"

ثم تحدث للـ(هاتف) كأنه يحادثها كالمخبول:

"بتستقرضيني!!؟ بتخونيني يا (هدايا)!!؟"

وظل يكرر تلك الجملتين، حتى تحامل بجسده جالسًا، ودفن وجهه بين كفّيه، غير متوقع حبه لها، والذي أصبح كالمرض، الذي وصل لحد الإزمان.

ثم صمت فجأة على صوت خطوات متثاقلة، وضحكة مبحوحة كمن يتشفّى فيه ويتمتع بعذابه، فنظر لأعلى ليجده (نبيل)، مبتسمًا بانتصار، وعلى وجهه أعلى درجات السخرية، وقال ضاحكًا: "هه!؟ لسة مش مصدقني!!؟؟"

(سعيد): "مكنتش متوقِع منك ندالة ووساخة بالشكل ده! مقولتليش ليه قبل ماحبيتها!؟"

(نبيل) وعيناه تلمعان: "أنا حذرتك يا صاحبي منها وقولتلك دي تصاحبها بس، وحبيت أثبتلك عشان انت حبيبي.. هي متسواش بالنسبالي حاجة.. أحلفلك!؟"

(سعيد) والكلام يخرج منه بصعوبة: "قصدك إيه!؟"

(نبيل) بخبث: "أنا كشفتهالك على حقيقتها.. يا ريت لما تروحلها وتواجهها تسألها تاني على قصة (خالد جوزها)"

سعيد وهو ينظر متعجباَ: "ماله (جوزها)!؟؟"

(نبيل): "هسيبها تحكيلك.. هي مستنياك"

(سعيد) مندهشًا: "عرفت منين كل ده!؟"

(نبيل): "اتقل بس دانت هتشكرني يا صاحبي.. ساعات الحقيقة بتبقى زي فنجان القهوة، مُرَة في الأول، وكل ما بتشرب بتزيد حلاوة، عشان بتقرب من السكر.. سايبهالك عشان تحس بطعمها"، ثم أردف: "بطعم السكر اللي تحت"

(سعيد): "أنا مش فاهم حاجة منك يا (نبيل)!!"

(نبيل) وعلى وجهه خباثة لا تُوصف: "قُلتلك اتقل وروحلها.. هي مستنياك بشوقة دلوقتي"

(سعيد) وهو ينهض كالمخابيل: "أنا فعلا لازم أروحلها وأواجهها!"

(نبيل) بثقة: "روح وصدّقني هتعرف أد إيه أنا عايز مصلحتك"

سكت (سعيد) عن نحيبه، واعتدل في نهضته ذاهبا إلى شقة (هدايا)، تاركًا باب شقته مفتوحًا لعدم تركيزه ولغياب وعيه.

*****

عبر (سعيد) عرض الحي مُسرعًا إلى شقة (هدايا) بمساعدة المفتاح بحوزته، دخل شقتها فوجدها نائمة. أراد أن يبصق عليها؛ كيف تنام بهذا الشكل وكأنه انعدم داخلها الضمير لتتلاعب به دون ندم!؟ ثم نظر للمرآة إلى نفسه فوجد شخصًا ضعيفًا مُحزنًا مُغطى بالعار. كيف سيقابلها ويواجهها بهذا المنظر الباكي والمبكي!!؟

فاتجه إلى دورة المياه، ليغسل وجهه بالماء ويمسح مخاطه المتدلي من أثر البكاء.

*****

استيقظت (هدايا) من نومتها متحسسة رأسها الثقيلة كمن تخدّرت بذراعها فلم تستطع، تتقلب على سريرها باحثة عن (سعيد)، لكنها أحست بحركة داخل دورة المياه. حاولت إدراك من بالداخل، فجربت أن تنادي فإذا بشفتيها ملتصقتين ببعضيهما!! أخذت تهمهم، تحاول أن تستغيث، بلا مُغيث!! تحركت كرتا عينيها محاولتين أن تتفهّما ما حل بها دون فائدة!!

*****

طسّ (سعيد) وجهه بالماء، ونظر بالمرآة، ليجد (نبيل) ماثلًا خلفه، فالتفت في رعب: "دخلت هنا ازاي!!؟"

(نبيل) كمن يحول إثارة غيظه: "عادي يا صاحبي سر المهنة.. نسيت إنها متصوّرة معايا برضه!؟ أكيد معايا المفتاح زيك.. دي لامؤاخذة ست شمال أوي"

(سعيد) وقد استفاق من صدمته بعض الشيء: "انت عايز إيه يا (نبيل)!؟؟ مش اتفقنا تسيبني أواجهها!؟ ولَّا عاوز تشمت فيّا!؟؟"

مد (نبيل) يده نحو (سعيد)، الذي لم يقاوم، وبكل برود أخرج (زجاجة الصمغ) من جيب (سعيد)، وخلط ما بداخلها بماء الصنبور على كفه، ليصبه على موضع شارب سعيد وفروة رأسه ويدلكهما.

ثم مد يده في الجيب الآخر لـ(سعيد)، ليخرج شعر (الدمية الغامضة) الكثيف، ويلصقه موضع شارب سعيد وموضع فروة رأسه على المادة اللزجة، ثم دفعه دفعة قوية، ليحاول سعيد أن يتزن، ويلمح نفسه في المرآة، ليجد نفسه وقد تحول إلى نسخة طبق الأصل من (نبيل)، الذي اختفى بطريقة ما بعد دفعه!!

صرخ (سعيد) عندما نظر إلى نفسه: "(نبيل)!!"

ثم رد على نفسه بصوت خشن: "أيوة يا صاحبي.. أنا وأنت واحد.... أنا نفسي نبقى كده دلوقتي.. أنا وانت في نفس الوقت"

(سعيد) برعب: "إزاي!!؟"

رد على نفسه مغيّرًا صوته للأجش: "مش مهم إزاي دلوقتي..

دي قصة طويلة.. سيبني أخلصلك على (هدايا) ونخلص سوا من وساختها.. بس قبل كده خليها تحكيلك الحقيقة عشان أنا متأكد إنها كدّابة"

وافقه (سعيد) الرأي بلا جدال، ثم خرج من دورة المياه ملتقطًا ماكينة الخياطة ثقيلة الوزن من على المنضدة، وعيناه حمراوتان كالجمر!

ووقف بجانب هدايا التي تحاول الفرار من قيدها، ونادى عليها بصوت (نبيل) الأجش: "(هدايا)!!"

*****

(٦)

تَذَبْذُبْ

صدمت (لمياء) من (حبيبها)! لقد أدركت حقيقته! وحزنت حزنًا شديدًا؛ مقتنعة تماما أن قضاءها الآن أخف بكثير مما كانت ستواجهه، وممن كان يوما حبيبها!

تابعته، وهو ينادي على (المسكينة)، لتنظر له بغرابة، ويقترب من شفتيها الملتصقتين بالصمغ، ليبعدهما عن بعضهما وينتزع الصمغ من شفاها الدامية، ويفك وثاقها، وهي تئن من الألم، وتسأله برعب وقد بات صوتها مبحوحًا من عدم القدرة على تحريك شفتيها: "(سعيد)! بتعمل فيا كده ليه!!؟؟ وعامل في نفسك كده ليه!!؟؟"

(سعيد) بصوت (نبيل) الأجش ضاحكًا: "(سعيد) مش هنا خلاص.. أنا (نبيل) صاحبه اللي خدّرك يومين ونام معاكي لغاية ما شبع منك.. تقدري تقولي (سعيد) ده اللي خنتيه معايا أنا!"

بكت (هدايا) وقد أحست بخلل ما: "(سعيد)! انت بتقول إيه!؟ مش فاهمة!!"

أمسك (سعيد) بهاتفه، وألقاه في وجهها، لتتأوه وهي مصدومة غير مصدّقة: "شوفي وانت تفهمي!"

فشاهدت صورهما معا، فتساءلت متعجبة وبصوت واهن: "أنا مش فاهمة حاجة يا (سعيد).. دي صورتك معايا بس بشنب

وشعر زي مانت واقف قدامي، وأنا نايمة.. أنا مختنكش مع حد اسمه (نبيل) ولا غير نبيـ....

صاح (سعيد) مقاطعًا بصوت أجش: "انتي إنسانة جاحدة وواطية ولازم تموتي!! بس مش قبل ما تقوليلي عملتي إيه في (خالد جوزك)!!"

برقت عينا (هدايا) غير متوقعة مستنكرة: "معملتش"، وبدأت تحاول الصراخ، فشدّها (سعيد) من وجهها ضاغطًا على خديها بعنف: "لو صوتك طلع هقطعلك لسانك... انتي فاهمة!!؟"

أومأت له (هدايا)، وهي تنتحب وتنهج بصدرها، ونبضات قلبها جعلته بارزا منه يتقافز للخروج من شدّة الرعب! فتساءلت على أمل الحصول على إجابة مقنعة: "سعيد.. انت إيه اللي حصلّك!!؟؟"

أجابها (سعيد) بصفعة قوية جدًا نثرت دماءها على ملاءة السرير: "قوليلي عملتي إيه في (جوزك)! احكيلي! أنا متأكد إنك عملتيله حاجة!"، ثم صفعها مرة أخرى وهو يصيح: "انطقي يا وسخة!!"

هذه المرة توقفت (هدايا) عن النحيب تدريجيا، وقد فقدت الأمل: "شكلك بدأت تفتكر!"

نهض (سعيد) من عليها وهو يتراجع وبصوته الخشن: "أفتكر إيه بالضبط!؟"

(هدايا): "بعد حادثة العربية اللي حصلتلك وانت نسيت كل

حاجة.. نسيتني أنا شخصيا"

نظر سعيد لها متعجبَا.

ثم اهتزت بضحكة متقطعة خافتة، وهي تنظر بألم ولأسفل متحدثة بصعوبة: "الظاهر الخيانة الزوجية دايما نهايتها وحشة، ومش بتيجي من برة، دي من جواها"، ثم رفعت رأسها ونظرت له لتتلاقى العينان: "من عشيقي"

*****

وقف (سعيد) مشدوهًا، متقمصًا (نبيل) وبصوته المبحوح الأجش: "إيه!؟ عشيقك!؟"

بترت (هدايا) بقولتها: "أيوة! انت يا (سعيد)"

(سعيد) وقد ازداد صوته خشونة: "قلتلك أنا مش (سعيد)! ويعني إيه الكلام ده!؟؟"

(هدايا) وقد أحسّت بضياع الأمل: "هقولك!"

ثم مسحت شفاها بلسانها مبتلعة الدماء الغزيرة التي نزفتها رغمًا عنها، وقد أحست بطعمها اللاذع، وتنهدت مغمضة العين كأنها تتذكر كل تفصيلة: "(خالد جوزي) كان إنسان فاشل، زبّال، رِمّة.. بيرمرم مع النسوان القديمة بتوعه.. ملقاش حد يلمّه... جرجروه في طريق المخدرات والليالي الحمرة... كان شاطر بس يخلي ليلتي أنا اللي سودة!"

"صرف كل فلوسه... فلّس وبدأ يسرقني وبالإكراه كمان، وزي ما

قلت الجوازة كانت مصلحة.. أمه ماتت من زمان وأبوه غزال اتقبض عليه في جريمة مفيهاش رجعة، محدش بقى بيزوره.. ده أثّر عليه وعلي أخوه اللي مات مقطّع شرايينه، خصوصًا إنه كان وحيد ومكنش اتجوز لسة"

"ده زوّد عدوانيته وأثّر عليه، مبقتش عارفة أتفاهم معاه، أكلّمه، أنام جنبه، مش طايقاه.. أكِلته بصل، رنجة أي حاجة تتخيلها نَفَسها وِحش عشان مايقرّبش منّي.. كان بيضربني.. النوم معاه كان اغتصاب"

"كان بيهينّي ومنعني من زيارة (أمي) الواطي مع إنها كانت بتعشق اسمه.. فلوسه كلها راحت وابتدا يسرق مني.. دهبي... اكسسواراتي.. بقيت بالنسباله واحدة بينام معاها بعد ما يضربها، ويجبرني إني أنضّف نفسي من الروايح اللي بتعمّد أحطها.. معنتش مراته وسنده.. ولا في عشرة عشان أطيقها أو استحملها"

"حسيت إني هانتحر.. كبت رهيب.. ظلمني ابن الكلب معاه.. أهلي كانوا السبب، ملقيتش حد منهم ياخدني في حضنه وأفضفض معاه"

"لغاية ما لقيتك.. أينعم أصغر مني بس انت الوحيد اللي حسّيتك مختلف مش طمعان في جسم ولا فلوس، مش بتاع تنطيط قاعد في البيت منعزل.. لقيتك انت المناسب"

"كنت استنى الزفت يخرج، وأقف أستناك على الشباك كأني

مستنية حبيبي ومتجملاله"

"وفي يوم شُفتني وبصّتلي، وحسيت بنظرتك ليا.. فهمت إنك أعجبت بيا.. رمتلك السلام بابتسامة.. ردّيت عليا"

"كل يوم بنتعرف أكتر على بعض، لغاية ما وقعنا ف حب بعض وعشقنا بعض، وكنت بتجيلي و(خالد) مش موجود، ومن كتر اللي عمله فيا واللي حكتهولك، انت كرهته كُره العمى"

"كنت بتسمع زعيقه وشتايمه معايا وتتخنق أكتر.. كنت عارفة منك إن حياتك ما بين إنك بتدور على شغل، و(نبيل) صاحبك المطرقع اللي مبطلتش تحكيلي عنه"

صمتت لحظة، ثم بكت وجمعت جملتها: "اللي متوقعتش إنه هو انت!!"

"أيام بتفوت وحبّنا بيزيد، والحي بيفضى وسكانه بيقلّوا، وده ساعدنا إن علاقتنا متتكشفش.. كأننا برة الدنيا"

"لغاية ما جه اليوم الغريب اللي سمعت (خالد) فيه وهو ضارب وسكران طينة وبيخطط لحاجة في الفيلا، وبيكلم أخوه اللي طلع ميت"

اليوم ده أنا اترعبت فيه، مش عشان كلمت فيه (عفريت خالد) وإنه رد عليا مرتين وكبل التليفون كان مفكوك.. لأ ده عشان....

*****

منذ سنة:

....تم استيفاء البيانات اللازمة منها بماهية واهية وبذلك الاسم المستعار لها، وهي تحاول أن تخرج صوتها ليسمعه (شوقي).

أغلقت (هدايا) المكالمة، وعقلها يكاد ينفجر من التفكير، فيما أبلغت الشرطة من جنون!

انتفضت على سماع تلك العبارة، والتي تحمل نهايتها: "انتي بتسلّميني يا بنت الـ.....!!؟"

صرخت (هدايا) رعبَا، عندما نظرت لزوجها الذي عاد دون أن تشعر به، ليسمع بلاغها بكل ما فيه من حوار، فأعلن نهايتها، لكنها أسرعت نحو باب الشقة لتفتحه، فشدّها هو من شعرها للداخل مرة أخرى.. يدرك تماما أن الحي بات مهجوراً، ولا منجِي لها، باستثناء (سعيد) الذي تصادف وجوده في ذلك الوقت، وقد سمع صراخها كالمعتاد متألمًا لـ(عشيقته)، التي حاولت الوصول للنافذة وقد أحست أنها نهايتها لتستغيث به!

ثم التفت لصديقه الكائن على الأريكة، ينظر له بغضب صارخًا: "ابن الكلب بيضربها!! هيموّتها!!"

(نبيل) ببرود: "عاوز مني إيه يا (سعيد)؟؟"

(سعيد) مستغيثًا لمشورة (صديقه): "ساعدني يا (صاحبي).. (هدايا) هتروح مني... بقولك (جوزها) هيموّتها"

(نبيل) بلامبالاة: "الناس هتسمعهم دلوقت وهتلحقهم"

(سعيد): "انت عارف إن مفيش حد ساكن غيرنا في الحي ده.. أنا مش عارف أعمل إيه! بقى اليوم اللي محتاجك فيه عايز تقل مني!؟ عايز تضيع مني حب حياتي!؟"

(نبيل) وهو يبرق بعينيه وبصوته الأجش محتدًا: "أديك جبت من الآخر.. حب حياتك! وصاحبك (نبيل) عشرة العمر اللي بينه وبينك تاريخ راح فين!!؟ انت لما بتقابلها بتنساني باليوم واليومين"

ثم صمت ليستمع إلى صوت الصفعات التي يصفعها (خالد) لـ(زوجته)، مطلقًا وابلًا من السباب، وهي تصرخ وتستغيث، وأحس بصدق إحساس (سعيد) ونظرة التوسل تعتريه، فتنهد: "خلاص هساعدك بس بشرط!"

(سعيد) متلهفًا: "اشرط بس بسرعة"

(نبيل): "(هدايا) تبقى بتاعتي!"

أومأ (سعيد) شاردًا ببصره نحو الفراغ موافقةً، ثم أسرع متقمصًا (نبيل) بملامحه (الشارب والفروة)، وفي جعبته سكين حاد يلمع في الظلام.

ثم أدرك أن (خالد) قد انتهى من تعذيب (زوجته)، وهرول هاربًا من منزله ليختفي من الشرطة لعلها تأتي بحثًا عنه في أي وقت، فتبعه (سعيد) حتى منطقة مقفرة جدا.

استغل (سعيد) انشغال (خالد) بسيجارته مذهبة العقل، حتى

أصابه في خده الأيمن بسكينة المطبخ لتخترق وحمته!

صرخ (خالد) من هول المفاجأة غير متوقعٍ لا من الألم؛ فهو مُخدّر من كثرة المخدرات التي تسري ببدنه، لكن أنهكه ضربه لـ(زوجته) الذي بالغ فيه هذه المرة، وقد كاد ينهي عليها؛ فاكتفى بالصراخ والاستغاثة، فانقضّ (سعيد) عليه مرة أخرى بوابلٍ من الطعنات وهو يضحك بصوت أجش، و(خالد) متسمراَ من المفاجأة لا يدري مَنْ هذا، أو من أين أتى له! وأدرك أنها حتمًا نهايته، فحاول الهرب لكنه تأخّر؛ إذ باغته (سعيد) بركلة قوية جدا في ظهره أسقطته على وجهه لتختلط دمائه بالتراب، ثم عدل من وجهه زاحفًا، فوجد (سعيد) يبحث بهيستريا عن ما حوله عابثا في كومة من الكراكيب، معقودٌ بها حبل غليظ يفي بالغرض، وحجر ضخم، ليربطهما بقدم (خالد) الذي تحول إلى مصفاة، وقد انبثقت الدماء من ثقوبه من كل جانب، وفقد السيطرة على نفسه واستسلم لنهايته، ثم أخذ يسعل بالدماء لتغطي وجهه، لكن عينيه تراقبان (سعيد)، وهو يلف جسده على ظهره ويربطه بالحبل كالذبيحة من قدميه، فمد يده محاولًا التوسل له ليتوقف، لكن (سعيد) لم يبالِ له؛ إذ أمسك بالحجر وسحب جسد (خالد) النازف وصولاَ إلى الترعة، ثم بصق عليه وركله ليغوص داخل أعماق الترعة.

ثم عاد أدراجه معفّرَا بالتراب يواري الدماء التي تلطخت، خافيَا آثار جريمته، ومتوجهًا نحو الطريق السريع.

*****

أحس (خالد) أن الطمي بدأ يدخل ثنايا أنفه الداخلية، ورئتاه تمتلئان به تكادا تنفجران، حتى فرغتا من الهواء، يشعر كمن يسبح في ظلام سحيق، فبدأ يتشنج بلا فائدة، وتلاشى من أمامه كل شيء، باستثناء ومضات من حياته السيئة التي عاشها وجنى منها طمي الترعة في النهاية حتى اصطدم بالقاع. وبدأت المخلوقات البحرية تحتفل بقدوم تلك الوليمة، تتصارع كالحيتان على نهشه، حتى تقطّع إلى عدة قطع، وانفصلت رأسه بقطعة من كتفه، لتسبح مع التيار عدة أيام، حتى اشتبكت مع خطاف صنارة، أدرك صاحبها من ثقل وزنها أن قد وجد صيده المرجو منه.

ثم صاح فرحاً: "الحق يا ولا يا (عزت) شكلها سمكة!"

*****

نظر (سعيد) لـ(نبيل) وهما يتمشيان بمحاذاة الطريق السريع: "شكرا يا (نبيل)"

(نبيل): "ولا يهمك انت (صاحبي) وأنا من حقي أساعدك.. افتكر بس الشرط بتاعي"

(سعيد): "بصراحة يا (نبيل)، أنا عايز أقولك على حاجة مهمة"

(نبيل) متعجباَ: "عاوز تقول إيه!؟"

(سعيد): "(هدايا) مش هتبقى بتاعت حد، لا أنا ولا أنت"

(نبيل) غاضباَ: "قصدك إيه!؟ مش هتنفّذ شرطي!؟ طب عارف

بأة لو منفذتوش هعمل فيك إيه؟؟"

(سعيد): "مش هتلحق يا (نبيل)!"

(نبيل) متعجباَ وقد تأخر في استيعاب مُخطط (سعيد): "!!!!!"

لمح (سعيد) تلك السيارة الحمراء الدامية التي تقترب، وهو يكرر: "مش هتلحق يا (نبيل)!"

ثم أمسك بتلابيبه (نبيل) محتضنه كمن يحتضن نفسه، وألقى بنفسه على مسار السيارة، التي لم يستطعٍ قائدها ضغط المكابح، ليصدم (سعيد) صدمة ألقت به أمتاراً عديدة، ليغلق عينيه وقد اطمأن من نهاية كابوسه الذي يؤرّقه، كأنه يقول في داخله: "ده عشان نبطل نقتل يا (صاحبي) "

ثم اصطدم برأسه في شجرة، وتلاشى الشعور من بدنه.

*****

"من يوميها و(خالد) مرجعش، والشرطة اعتبرت قتله نتيجة لبلاويه، والميّة غطت أي دليل، واكتفوا بالتحريات، وزي ما قلتلك نزلت أسأل عليه وعرفت اللي حكيتهولك.. إنه اتخانق وحد ضربه وقتله!"

"أما انت ماكنتش عارفة انت اختفيت فين.. آخر مرة حاولت أفتح الشباك وخالد بيضربني مشوفتكش.. بس كنت عارفة إنك كنت موجود وما كنتش في شغلانة.. قلقت عليك وحسيت إن حصلك حاجة!"

"دورت عليك في كل حتة زي المجنونة.. ماكانش فيه غيرك اللي يقف جنبي.. وعرفت بعد كده إن فيه عربية خبطتك خبطة جامدة وكنت بين الحيا والموت.. زُرتك في المستشفى اللّي حجزوك فيها.. لما فقت مافتكرتنيش نهائي.. قلتلك طب صاحبك (نبيل) فين يمكن يفكّرك بيا؟؟ رديت عليا رد غريب أنا فهمته بس دلوقتي.. قلتلي: (نبيل) هو كمان مش فاكرك عشان يفكّرني"

"حسيت إنك بتخرَف.. وطلعت فاقد جزء كبير من الذاكرة.. لما سألت الدكتور وقلتله إنك (خطيبي) قالي إنك شوية تقول اسمك (سعيد) وشوية (نبيل).. بس طمّني إنك فاكر أسرتك ومكان سكنك، وبعد كده انت ناسي كل حاجة، واحتمال الذاكرة ترجعلك بس لوحدها مع الوقت.. ونصحني إني محاولش أزورك كتير وأفكّرك وأضغط عليك عشان ميحصلش انتكاس لحالتك وتفكيرك يتشتت.. واستغربت إن (نبيل) ما زاركش، وطبعا فهمت دلوقتي ليه... أنا كنت غبية"

"أشفقت عليك وصعبت عليا وحسيت إني حبيتك أكتر.. واستنيتك بالليالي عشان ترجع بالسلامة ورجعت.. حسيت إنك اللي ليا بعد ما راح (خالد) في داهية وبقيت وحدانية.. حسيت إني عاوزاك ليا، والأيام بتمر وأنا محتاجالك، وإني لازم أقرَب ليك أكتر وعلاقتنا تتطور وتقوى. اليوم اللي بتروح تدوّر على شغل وماترجعش باتمنى فيه تسيبه عشان أشوفك على طول"

"وكأني لسه بتعرف عليك من الأول، حسيت إنك بتبادلني الإحساس من أول وجديد.. حمّستني أكتر إني أقرب منك، لغاية

ما بعتلي رسالتك فرحت.. مصبرتش كان نفسي ساعة الصبح تيجي عشان أخدك في حضني.. وبعدين حكتلك كل حاجة بس مرضيتش أحكيلك حكاية (خالد) لما ضربني.. كانت بتوجعني أول ما بفتكرها.. وخفت تتعبك لو افتكرت.. قلبت الصور بتاعته على وشها، وكنت ناوية أشيلها، وعديت الموضوع عشان مقلبهاش نكد وأنا في حضنك"

*****

بينما يستمع لها (سعيد) محاولًا التذكر بلا فائدة، توجه نحو إحدى الصور المقلوبة، لينظر إلى وجه زوجها وتصعقه الصاعقة؛ ليجده ذلك الشخص الذي يشبه المانيكان بتلك الوحمة والخدش النافذ خلالها!!

فجلس سعيد على أقرب كرسي لـ(هدايا) مصدومًا، وقد أحس بدوار شديد، وقد بدأت ترجع له الذاكرة شيئا فشيئا على شكل خيوط رفيعة، يحاول جذبها فتنقطع منه، لا يستطيع التعلّق بأحدها.. مجرد أشلاء مشوّشة! أدرك حينها أنه تأخر وقد بدأ (نبيل) يسيطر داخله منعًا لحدوث محاولة غدر أخرى من (سعيد) لإنهاء حياتهما معا، فقيد حريته. نظرت له (هدايا) وهي تذرف الدمع من الألم الجسدي والنفسي: "انت اللي قتلت البواب صح؟؟"

سرح (سعيد) في الحائط كمن يتذكر جميع أفعاله، ثم أومأ لها بنعم.

بكتْ (هدايا) نادمة: "وأنا اللي بعدتهم عنك بشهادتي عشان

حبيتك، مع إني كنت حاسّة إنه صاحبك، وكنت عاوزاك تسيبه عشان متطمنتلوش وخايفة منه.. ماكنتش عارفة إنكم واحد!"

وبدون كلمة، وقف (سعيد) معدلًا شاربه، متحسسًا فروة رأسه بطريقة غير طبيعية، وعيناه تلمعان بالشر، متناولا ماكينة الخياطة، رافعا إياها، وبدون مقدمات هوى بها على رأس (هدايا) بقوة، فصرخت صرخة مكتومة إثر ارتطام الماكينة برأسها، لتنفلق رأسها في الحال إلى نصفين، ويتدلى مخها إلى الخارج، وتنسال الدماء كالنهر، وتفارق (هدايا) الحسناء حياتها بضربة واحدة.

ثم عاود (سعيد) الانهيال عليها ضربًا، حتى تفتّت مخها وتكسرت عظام رأسها متناثرة على السرير، ثم ألقى بماكينة الخياطة على جسدها نصف العاري، لتترك عليه كدمة كبيرة جدا.

ثم اغتسل وارتدى ملابسه في عُجالة، مغلقًا باب الشقة، مسرعًا نحو شقته، ليسقط على سريرة بلا ندم ولا مشاعر، يفكّر كـ(نبيل) الآن بأنه يستطيع أن يُخفي (سعيد)، لكنه يحتاجه للوظيفة ولإدرار المال. تذكر كم كان يحتاج المال الذي خبأه (البواب) قبل أن يفتك به وهو نائم ويسرق المال، وقد خرج منها بشهادة (هدايا) لصالحه، وإثبات بُعْده عن مسرح الجريمة.

ثم بدأ يحيره تشابه (المانيكان) مع (زوج هدايا)، وعلى ثقة تامة بأن جثة (هدايا) لن تُكتشف نهائيا؛ لأنه الآن هو الساكن

الوحيد المتبقي بعد أن أنهى على آخرهم، وهجر البقية هذا الحي المخيف، عاجزين عن بيع عقاراتهم، ليصبح المكان كحي له وللأشباح.

تنهد بارتياح غريب، قبل أن يغُطْ في نوم عميق جدًا حتى ميعاد عمله، ليلاقي كوابيسه كالمعتاد، والتي تخيفه أكثر من الأشباح؛ تحاول أن تضغط على أعصابه لتذكّره بماهيته.

*****

تساءلت (لمياء) كيف حدث هذا لـ(سعيد)!؟ كيف تخيّل صديقًا وهميًا يدعى (نبيل) متخذًا هيئة مختلفة وشعرًا وشاربًا مصطنعين.

أحست بالشفقة تجاهه؛ فبداخل هذا (المسكين) صراع دائر بين الخير والشر، انتهى بانتصار الشر داخله متوغلًا ليدفن الخير بداخله لمدة يومين، كأنه خدره ليكسب رهانه.

فبحثت عن حياته سابقًا؛ لترى ما سبب هذا التذبذب بداخله! ما سبب تحوله إلى جليسًا للشر هكذا!؟ جليسًا لـ(نبيل)!!؟

*****

(٧)

عيون زجاجية مبددة للآمال

رجعت (لمياء) للوراء بالزمن تتابع بدقة ودهشة ذلك (المولد) المهيب، والذي بدا مدججًا بالبشر، كُتب على اللوحات المتناثرة في أرجائه (مولد الشيخة فرح) (جدّتها)، متعجبةً عندما ارتفعت سماعات واستريوهات المولد ذات الصوت الركيك المشوّش، لتغنِي المواويل والـ"آه ياعين... وياعين ياليل"، والناس أسرًا وأصدقاء تتراقص وتشتري حلوى غزل البنات والتسالي والألعاب وغيرها من المشتريات.

تختلط بها الأغاني الشبابية والشعبية في تلك الخيمة، والتي بداخلها راقصة قد عادت لتوّها من مستنقع القمامة، ببدلة مقطعة تخرج منها الفتل كالشعيرات والهديبات المخيفة، لتغنّي وتتمايل بنهديها المعطوبين لتعيش بهما الوهم، وتنام مائلة على الأرض لتتقاذف الرجال الممسكة بالبيرة على بعضها كمن يصعد الجبال لمحاولة النيل منها بنظرة أو بضحكة، لكنها لا تعطيهم ريقًا ولا بالًا، إلى أن ينتهي الأمر إلى عراك عنيف على من دفع الآخر ليسقط الأول!

وهناك ذلك الرجل الذي يصوّب على الهدف ببندقية تطلق مسامير نحو بمبة، تمسكها بممسك حديد طويل فتاة بيضاء جراء دس وجهها في كيلو من الدقيق وأحمر شفاه دموي ساطع، يلتف حولها شابان ممسكان بها كمن يحرسانها من التحرش،

وقد سئم منها التحرش في الحقيقة من هاذين الشابين، تغطي يديها الحنة الباهتة و طلاء أظافر رخيص الثمن مقشّرًا من بعض المناطق بأظافرها، حافية القدمين لتظهر بياضها؛ حتى تستقطب كل غبي إليها بحجة إظهار رجولته، وأنه سينال منها تصفيقًا حادًا أو ابتسامةً باهتة صفراء ومصافحة باليد لإرضاء شهوته التي ليس لها معنى، وليصبح البريمو هذه الليلة.

وهناك اللهب الصادر من فم لعّيب الأكروبات الذي يلعب بالنار، وهذا الرجل محترف الدراجات البخارية، والذي يمشي على الحائط الخشبي الاسطواني العال بالإضافة إلى تعصيب عينيه كنوع من المخاطرة، وخيمة لمسرحية الأراجوز وعرايس الماريونِت، ومسارح السحرة والمرأة التي قُطّعُت إلى نصفين، وأصغر امرأة في العالم، والرأس المتحدثة ذات الملامح الباردة والتي تطلعك على المستقبل، والسيدة التي تهمس للوَدَعْ وتنادي: "أوشوش الودع" وتُطلعك على ماضيك الخفي ومستقبلك البعيد، وغيرها من الأمور الجذّابة والمسلية للناس.

وهناك الكثير من الألعاب التي يقصدها الكبير والصغير للتسلية، وعلى رأسهم (الساقية)، والتي قد تنقطع بها الكهرباء وتظل عالقة بالأعلى تنتظر أن يتم جذبها ولفّها يدويا، لإنزال ركابها المستغيثين بعد أن ذهب صوتهم من النواح والصراخ؛ و تلك الأرجوحة التي تلُف في دائرة عمودية كاملة، يقف فيها المتأرجح أو المتأرجحة، وباحترافية شديدة وقد انتزع منهم الخوف.

*****

شهدت (لمياء) مشهد (المولد) المُقام على روح (جدتها) التي توفِّت وتركت ذكراها بهذه البقعة، ليحتفل الناس بالليلة الكبيرة عليها في خيمة كبيرة بها عدد كبير من الرجال والنساء، ملوِّحين برؤوسهم ذهابًا ومجيئًا على هيئة صوفية، وبالدفوف يدفّون... تتوسطهم عروض التنورة لأب محترف وسيم الملامح رغم كبر سنه ذو شعر طويل مفلفل، وابنه الصغير الذي لا يقل عنه كفاءة.. بل يفوقه.

يغطي على أصواتهم صوت قوي وعذب لشخص حاد الملامح ذي عباءة مُبرقشة، صوته يتدفّق من شفتيه عبر مكبرات الصوت كالسحر، ليتوغل فب قلوبهم اللينة، لتذرف دموعهم وتطرب له آذانهم، وهم يهتزّون متأثرين بشدة على كلام قصيدة ينثر أبياتها كمن يطلق وابلًا من سهام المشاعر:

★ متي ياكِراااام الحَي عيني تراااكُم؟؟

★ وأسْمَعُ مِنْ.. تِلْكَ الديَاار نداااكُم...

وأسمع من.. تلك الدياااار نداااكم؟؟

★★ سقاني الغراااام.. كأسا من الحُبّ صافيًا

*****

مشهد مهيب بحق!! شد انتباه (لمياء)

★ يا ليته لما سَقاااني... سقاااكُم!

يا ليته لما سقااني... سقاااكم!

*****

ينجذب الأهالي شيئًا فشيئًا نحو الصوت وتأثيره:

★ أمُرّ علي.... الأَبْواااب مِنْ غَيْرِ حَاجِةِ

★لَعَلّي أَرَاااكُمُ أو أرى من يَرَاااكُمُ

★★سقاني الغراااام.. سقاني الهَوَى

سقاني الغرااام.. سقاني الهوى

كأسا من الحب صافيا... يااااا ليته... يا ليته.. ياليته وووووه لما سقاااني.. سقاكم.

اندهشت لمياء من قوة المعاني.. عندما أكمل:

★خذوني عظااامًا محملًا.. أين سِرتُمُ..

وحيث حللتُمْ... فادفنونِي حذَاكُمُ

★ودوروا علَيّ.. قَبري بطرْفِ نِعَاالكُمُ..

فتحيا عظامي حيث أصغي ندااكُمْ

★وقولوا.. رعااك الله يا ميت الهوى

وأسكنك الفردوس.. قرررب حماكم

*****

واختتمها:

★★ سقاني الغراااام... سقاني الهوى

سقااني الغراااام.. سقاني الهوى

(سقاني الغرام كأسا من الحب صافيا)* ... يا ليته لمّا سقااااني سقاكم.

*****

هذه القصيدة من (ديوان القطب الرباني) للعارف بالله الغوث الشيخ أبى مدين التلمساني (ولد سنة ٤٩٢ هـ، توفى ما بين ٥٧٠ هـ - ٥٧٣ هـ)، له قصائد صوفية وحكم تسمى بالحكم الغوثية.
****تم اقتباس بعض من أبيات تلك القصيدة في أغنية من الطراز والإنشاد الصوفي وإحدى روائع (فريق إيجيبشيان بروجيكت – EGYPTIAN PROJECT BAND) بعنوان (سقاني الغرام – SOUFI EXTRIAT)***

كادت (لمياء) أن تنسى مُبتغاها من عذوبة صوت هذا الشخص، حتى تذكرت و تابعت البحث بعد أن تمتعت بما مرّت به، وبدأ يروق لها منصب (المدّون)، حيث يطوف بالأحداث كيفما يشاء دون التغيير والتأثير فيها.

وفي الركن البعيد لاحت (فيلا) مخيفة، تتقدمها بمسافة قصيرة خيمة كبيرة يُغطي بابها ضوء شموع عملاقة من حوله، مرسوم عليها رسومات مخيفة لعيون ودمى عملاقة، يتوسّطهم رجل

عجوز يرتدي نظّارة، ويشير لهم كأنه يأمرهم!

ومكتوب أسفله باللغة العربية والأجنبية (عرايس حقيقية وهتكلمك: عندنا وبس، لا تقولي (الفينتريلوكُويزِم)* ولا غيره.. هو (عم قدري) مفيش غيره) (عم قدري العجيب وعروسته الجميلة (داليا) في حوار من القلب... تعالوا عندنا... وقرب متخافش...

(الفينتريلوكُويزم:** **Ventriloquism)

هو فن التحدث من البطن ليبدو غريبا ومن مصدر آخر، وفيه المتحدث (ventriloquist) يتحكم بدمية خشبية جالسة على فخذه ليحرك فمّها ورأسها وعينيها، مُصدرا هذا الصوت ليبدو صادرا منها، وكأنها حية وتخاطبه.

دب الرعب في قلب (لمياء) عندما شاهدت تلك الخيمة وقرأت ذلك الكلام، ثم لمحت (طفلًا) صغيرًا وهو يتسلل في اتجاه الخيمة، ويدخل رأسه بإحدى نوافذها ليشاهد ما بداخلها، ليجد (دمية) غريبة لصبي، غامضة! لها شارب وفروة رأس كثيفين، عملاقة بعض الشيء، لكنه حاول الوصول إليها بلا فائدة.

وفجأة يُمسك به هذا (الرجل) ذو النظارة الطبية ويدفعه للخارج: "انت عارف لو شفتك هنا هاعمل فيك إيه!؟"

سقط (الطفل) متأوهًا على الأرض إثر الدفعة، ثم انطلق زاحفًا لينهض ويعدو بعيدًا ليتوارى عن أنظار (الرجل)، والذي دخل

لخيمته ليحصر دماه ويتأكد من عدم وجود نقص بهم.

تبدو الخيمة أكبر وأضخم من الداخل، مبنية بأعواد كبيرة من الحديد، في نهايتها مسرح ذو بابين كبيرين مغلقين، في مقدمتهما ممران مسوّران بحديد صدئ، أحدهما للدخول وآخر للخروج.

عاد (الطفل) مرة أخرى، لكن أكثر حذرًا، مُصممًا على الدخول هذه المرة، ثم تسلل من نافذة أخرى، ليشاهد هذا الرجل وهو يمشّط شعر دمية جميلة لفتاة صغيرة يهتم بها أكثر من البقيّة، وهو يحدّثها قائلا: "عرفتي يا (داليا) يا حبيبتي هتقولي إيه انهاردة؟؟"

التفتت (الدمية) نحو حجرة الدمى بعينين دائريتين زجاجيتين باردتين، أسقطتا الرعب في (الطفل) عندما شاهدها، وقد ظن أنه انكشف أمره، ثم أكملت ببطء شديد ناظرةً إلى (الرجل) وأومأت له.

(الرجل): "جميل"، ثم قبّلها على جبينها، ووقف ليتجه إلى بعض المانيكانات الضخمة، ليعدّل من وضعها أمام باب الدخول، والتي يبدو على وجوهها أمارات الفزع لتخيف الحاضرين، ووضع بعضهم في خلفية المسرح، عندما نادته (الدمية داليا) كأنها أحست بشيء: "فيه ناس وصلت يا (جدو قدري)"

أسرع (الرجل) ليفتح الباب صائحًا: "لحظة واحدة والعرض هيبتدي"، فأومأ له شخص في مقدمة الصف يبدو في ملامحه أنه راقص التنورة الذي سحر الناس برقصه، وهو يربّت بسعادة

ولهفة على ابنه الذي مازال بزى الرقص دون التنورة، ويشير للناس باقتراب افتتاحية العرض.

*****

كانت تلك فرصة (الطفل) ليقترب من (الدمية) التي طالما سقطت عيناه عليها ويريدها بشدة، عندما مدت له يديها الخشبيتين والمحفور على أحد ذراعيها اسم (نبيل)، كأنها تستعجله وهي تقول: "يلا يا (سعيد) خُدني من هنا.. مش عاوز أعيش هنا"

احتضن (الطفل سعيد) (الدمية نبيل) وهو يومئ لها: "هنخرج بس إزّاي!؟"

نظرت له (الدمية) المرعبة بـ(تزييق) شديد وبخبث دفين في عيونها الزجاجية، وفمها الواسع يتساقط بالحروف على اتساعه: "استنى لما الناس تدخل كلها.. وأنا هقولك تعمل إيه"

*****

بعد عرض الليلة الكبيرة الصوفي، امتلأ المسرح الكبير بالكامل لعرض (عم قدري) المميز في هذا المولد، والذي نالت مساحته أكبر قدر من أرض المولد المجاورة للترعة؛ فتنتظر الناس عرضه بفارغ الصبر من السنة إلى السنة، وقد استطاع أن يجني مبالغ طائلة منه على مر السنين؛ فهذه حياته وهذه متعته. لكنها في الحقيقة مخيفة جدًا. يبدو أنه يتمتع بإخافة الناس بقدرته غير المعلومة على جعل الدمى كأنها أطفال حقيقية.. يبقى أن

تتحول أجسامهم إلى لحم وعظم كالدمية الأسطورية (بينوكيو)، التي تحولت من الخشب إلى طفل حقيقي.

وقد يظن البعض أن هذا العرض دائمًا ما ينتهي بمصيبة أو كارثة لأحد الحاضرين!

*****

نظر (سعيد) إلى (باب غريب) بأسفل موضعه، فهبط إليه، واستند بأذنه ليستمع إلى صوت بعثرة وتأوهات واستغاثات، فابتعد خائفًا.

فنظر له (نبيل): "ده المكان اللي بنيجي منه.. عم قدري بيصنعنا هنا ولما بيزهق من حد بيرمينا هنا تاني.. أنا مش عاوز أرجع هنا"

ثم أدرك أن العرض على وشك البدء، فأكمل بذات خبثه إلى (سعيد): "استنى نص العرض وهقولك نعمل إيه.. بس امسك الشمعة ديه"

وأشار إلى شمعة كبيرة.

استجاب له (سعيد) دون تفكير.

*****

بابتسامة عريضة براّقة ارتفع صوت (عم قدري) ليتردد صداه داخل المسرح الكبير وسط تصفيق حاد له: "سيداتي آنساتي

سادتي.. وبعودة الأيام وحشتوني جدًا، وأكيد أنا وحشتكم"

"النهاردة لازم يكون فيه جديد... حاجة مرعبة.. هتصدمكم.. وزي ما دايما بقول، لا تقولي (فينتريلوكُويزم) بأة ولا غيره!"

ثم أردف: "للناس اللي مش فاهمة الكلمة، معناها إني أمسك العروسة وأحرك بقها وعينيها أتكلم بيها بصوت من بطني، وأحركها بخشبة جواها.. بس الكلام ده فن ومهارة، أما أنا العرايس بتاعتي حقيقية مية في المية.. لو مش مصدق هخلّيها تكلمك شخصيا وهاجيلك بيتك بأي عروسة تختارها"، ثم علا بصوته الغليظ: "عرايسي فيها الروح أنا مبحركهاش"

دوت همهمة للحاضرين ما بين مقتنع وغير مقتنع.

ثم ضحك بهستيريا لكسر حدة الهمهمة التي سادت وسط جمهوره مداعبًا: "ده أنا ممكن أدّيها عنوانكم وهي تسبقني على ما أخلص لبس وأجيلكم، وممكن أبعتها تجيبلي طلبات كمان"

ضحك (الناس) وعيونهم تتفحص ديكور المسرح المخيف وأضواءه الخافتة، و نبضات قلوبهم تعلوا معلنة خلوّها من الصبر الذي قارب النفاذ، حتى أنقذ (قدري) الموقف في وقته وعلا صوته بابتسامة: "عاوز أسمع صوتكم بأة.. جاهزيييين؟؟"

(الحضور): "جاهزيييين"

ارتفع صوته: "لا لا لا مش سامع كده.. جاهزيييييين؟؟"

صرخت (الناس): "جاهزيييييين"

*****

ـ "أيوة جاهزة يا (جدو)!"

ردت (داليا) على (عم قدري)، الذي عاد لها وأمسكها ويساعدها على الوقوف وهو يبتسم لها.

ولاحظ (سعيد) أن هناك حبلًا مخمليًا يكاد يُرى بصعوبة، يخرج من أسفلها إلى الأرض، ليتابع مآله إلى ذلك الباب الغريب، ليمر أسفله وكأنه سلك كهربائي تتدفق عبره شحنات نابضة بحياتها.

ثم نظر بتساؤل إلى (نبيل) ليحاول إيجاد ذلك الحبل به فوجده مقطوعًا، ونبيل يشير له بالسكوت بإصبعه مجيبًا له على الفور: "أنا قطعته ولسة عايش معرفش إزّاي.. عشان كده عاوز أمشي من هنا.. مش بحب (عم قدري) يا (سعيد) أنا بحبك انت، هنبقى صحاب لآخر العمر"

*****

شهقت (الناس) من الدهشة عندما شاهدت (داليا)، والتي تبدو من ضخامتها كبنت بالغة من العمر ثمانية سنوات، وهي تبتسم لهم وتحييهم، بحركة بطيئة غير طبيعية لكنها حقيقية!

قبّلها (قدري)، ثم أنزلها على الأرض، وبعيونها الزجاجيتين الواسعتين والخضراوتين وبنظارتها، جالت ببصرها إلى الحاضرين،

وسط صمت رهيب منهم ينتظرون رد فعلها. كان العرض بلا موسيقى وهذا ما زاد التوتر، و(قدري) يبتعد عنها زهواً بهذا الانطباع، متابعًا ردود الأفعال! فأشارت إلى أحد الجالسين: "عمو ده خايف أوي يا (جدو).. تحب أنْزِلّه؟"

ضحك الناس وسط دهشتهم، يدركون أن في الأمر خدعة ما، لكنهم يتمتعون بتلك الخدعة راضين تمام الرضا.

ارتعد (الرجل) بشدة وهمّ واقفًا، عندما أمسك به بعض الجالسين حوله لتثبيته بمكانه، فصرخ: "لأ لأ سيبوني!"

ضحكت (داليا): "يا عمو متخافش دانا هنزِل أسلم عليك وأبوسك بس"

ضحك القليل، بينما استمر (الرجل) بالصراخ: "لأ سيبوني عاوز أمشي.. أرجوكم!"

حرر (الرجل) نفسه ممن حوله، وأطلق ساقيه للريح راجعًا للوراء، عندما شاهد أن باب المسرح موصدًا، وأن عليه أن يكمل العرض، فأخذت تغمره الناس بعيون ساخرة، وعدّته بنظراتها جبانًا.

ثم التفتت (داليا) لـ(قدري): "هو خايف مني!؟ طب أعمله إيه!؟" ثم ابتسمت ابتسامة عريضة مكملة: "أطفيله النور وأوريله أنهي بيخوف، أنا ولا الضلمة؟"

وفجأة وبدون مقدمات، أظلم المسرح بالكامل وسط صياح

الناس وصرخاتهم لمدة دقيقة!

شاهد (سعيد) حينها ذلك الباب الغريب وهو يفتح، وتخرج منه كائنات غريبة بسرعة شديدة، لتتجه نحو الرجل الجبان لتكتم فاه وتسحبه في الظلام نحو الباب، ليغلق بقوة، ثم يعود النور مرة أخرى وسط تصفيق حاد من الناس من هذه الخدعة المرعبة، ودون شعورهم بحادثة الاختطاف التي تمّت!

ضحكت (داليا) بخبث وهي تشير إلى مكان المخطوف الخالي: "الظاهر يا (جدو) الضلمة خوفته أكتر!"

التفّت (الناس) إلى المكان الخالي، ثم ضحكوا ضحكًا هيستيرياً وصفقوا تصفيقًا حادًّا ملأ المسرح، وطال وقته ظنّا منهم أن الجبان قد وجد طريقة للملاص من براثن الرعب الذي تجسد في دمية حية وسط ظلام قاتم، وآخرين يظنون أن هذا السيناريو متّفق عليه؛ و(عم قدري) يبتسم، ثم سرعان ما ذهبت الابتسامة عندما لمح (الطفل سعيد) و(الدمية نبيل) وهما ينسحبان بهدوء عبر زحام الحاضرين، و(سعيد) يمسك بتلك الشمعة.

صاح (قدري) بتلقائية غير مُدرك للعواقب: "استنى عندك يا حرامي!"

التفتت (داليا) وهي تنظر إلى (نبيل) بحزن الفراق، وقد أدركت خطته، و(نبيل) يضحك بهستيريا أخافت الناس، وقد ظنوا أنه تمثيلية كجزء من العرض، فأخذوا يضحكون، ثم صاح (نبيل) لـ(سعيد): "ارمي الشمعة سيبها تقع!"

أسقط (سعيد) الشمعة، وسرعان ما انتقل لهيبها لأرجاء المكان، وأدرك الناس أنها ليست دعابة عندما دبت النيران في أحد الحضور وهو يصرخ بالنجدة، قبل أن يسقط صريعًا وهو يتلوّى من الألم، وتنتقل النيران بسرعة رهيبة نحو ما حوله!

ثم على غير المتوقع، انفرج الباب الغريب ليلتقط كل من بالداخل وكأنه الجحيم وقد فقد السيطرة ليبتلع كل ما يمكن ابتلاعه، و(قدري) يشاهد الموقف بلا حراك، وقد فقد السيطرة وحاول الهروب هو الآخر!

أما (سعيد)، فقد أسرع نحو النافذة الأولى التي حاول منها الدخول سابقًا، وساعد (نبيل) على الصعود، وهربا منها هما الاثنان، حاملًا إياه بطلب منه، وقد صمت وسكن كمن خرجت منه الطاقة، حتى يستطيع عبور المولد به دون لفت الأنظار حتى خارجه، وقد استحال المولد فوضى عارمة بحق؛ لقد ابتلعت النيران خيمة (قدري) وساوتها بالتراب، واختفت الناس من تحت الأنقاض إلى ما وراء ذلك الباب الغريب، والذي اختفى أيضا بدوره، و(عم قدري) ظاهر بثوب نظيف، وهو المتبقي والناجي الوحيد، ممسكًا بـ(الدمية داليا) كمن يمسك بطفلته الصغيرة، التي ساحت بسبب الحريق، وهو يضغط عليها ويضمّها وينهمر في بُكاء حار، حتى أسرع الناس لنجدته.

وهو لا ينطق بشيء سوى البكاء على (داليا)!

*****

ولاحظت (لمياء) أن تلك المنطقة قد أصبحت محظورة منذ ذلك

اليوم، وقد أثّرت النيران على واجهة (فيلا قدري) التي توارت خلف خيمته المُدَمّرة، وراجت الإشاعات بأن من يأتي إليها سيختفي مثل البقية، إلا أن كَذّب تلك الإشاعة مجموعة من الصيادين، وأقاموا على شط الترعة حلقة صيد كبيرة، وباقي الأرض بمساحتها الشاسعة تحولت إلى شونة لتخزين القطن، ولم ير أحد بعدها (قدري)؛ فقد اختفى اختفاءً تامًّا، وتحولت (فيلته) إلى منطقة محرمة ومهجورة، وتتوالى الأقاويل أنه مات حزنًا على خسارته، ومازال شبحه يسير في الفيلا، ودُماه تستيقظ ليلا لتبحث عن ضحايا انتقامًا لموته!

لكن (لمياء) عبرت بالزمن لما بعد فترة طويلة؛ لفضولها المتزايد لترى غير ذلك؛ إذ بعد فترة طويلة على تلك الكارثة انزوى خلالها (قدري) وقد انطفأت نيران شهرته منذ انطفاء نيران خيمته، والتي أثّرت على واجهة فيلته لتصبح مخيفة لمن يراها، وتدب الرعب في السكان حولها، وكذلك غيرت من شخصيته كمن تغير للأسوأ؛ فقد نسي وجه (داليا) وكيف تبدو، لكنه لم ينس وجه (سعيد)، وقد عزم على مطاردته هو و(نبيل) العاق لكونهما السبب في تلك الكارثة؛ فكان يجلس بالساعات في قبو فيلّته المخيف، والذي يتوسطه باب يشبه الباب المخيف الموجود في خيمته، وقد اشتدّ شَرّه عما سبق، وأعد الخطة التي بها ستتغير حياة (سعيد)، وما بقي له هو البحث عن هذا (الصبي) و(دميته) الجاحدة!

*****

كانت معاملة (والدة سعيد) له قاسية إلى أقصى الحدود، في

حين تساهل (الأب) لها ظنا منه أنها تُمنهجه وسط جهلٍ تربوي صريحٍ منه، وقد أثار فقر التربية من كلا الطرفين أثرًا سلبيا واضحا عليه.

أدركته (لمياء) عندما شاهدت (سعيد) وقد تقدم به العمر قليلًا، وقد تلطّخ بالدماء، وقد ظنت أنها دماؤه، لكنها أمعنت النظر فوجدته يذبح قطة بدم بارد وبلا رحمة، وبدأ يتابعها بسعادة وتمتع وهي تصارع الموت وتتلوى من الألم، لتُنتزع منها الروح شيئا فشيئا، فتهدأ حركتها تدريجيا وينخفض مستوي صدرها، وهي تعوي بهدوء من الألم وعيناها تنظران للفراغ، تنساب منها بركة من الدماء لتكّون بُساطا دائريّا من حولها.

تأسّت (لمياء) لهذه القطة المسكينة والتي تتوسط هذه اللوحة المخيفة، ثم تابعت رد فعل (الأب) و(الأم) له لدى اكتشاف تلك الكارثة.

فـ(الأم) صرخت فيه و صفعته صفعة قوية أطاحت به أرضًا، ليسقط على جثة القطة: "إيه اللي انت هببته ده!!؟ انت اتجننت خلاص!!؟"

ثم التفتت نحو (والده)، الذي اكتفى بنظرة ذهول ساكنًا محله، عندما أخرجته (الأم) من ذهوله صارخةً فيه: "شُفلك حل فيه أنا مبقتش عارفة أعمله إيه! لا الضرب نافع ولا الشتيمة ولا غيرهم"

نظر لها (الأب) بسلبية عاجزًا لوهلة عن الرد، ثم تابع (الأم)

التي تسب وتلعن في وليدها الوحيد، وهي تتناول جثة القطة بقماشة بالية وهي تنفخ من الغضب والاشمئزاز، ووضعتها في كيس أسود غليظ خافية آثارها، ثم نادت على (العم مُخلف البواب) بعصبية شديدة فلم يستجب لها، فاستشاطت غضباَ وارتدت جلباباً أسمر وانطلقت تعدو خارج الحي لتلقي بالكيس، ثم أرسلت وهي عائدة إلى البواب بعد توبيخه لعدمِ الاستجابة السريعة، لينظّف الدماء مدعيةً له أنها ذبحت أرنبا لوجبة الغذاء، ثم توجهت إلى حجرة (سعيد) متسللةً، واستندت بأذنها على الباب لتستمع.

*****

عندما دلف (سعيد) إلى حجرته حزيناً ووجهه متورم ومتورد من أثر الصفعة، هرع إلى (دميته) الساكنة محلّها كمن يستغيث لها: "(نبيل)!! ماما شافتني وخدت (القطة) وضربتني.. أعمل إيه!؟"

(نبيل) ضاحكًا كمن دبّت فيه الحياة بصوت أجش: "ولا يهمك.. المرة الجاية بأة"، ثم أردف: "ومش هتبقى قطة"

(سعيد) متسائلًا: "أمال إيه؟؟"

(نبيل) بخبث: "خلّيها مفاجأة.. كنت عاوز أقولك حاجة بخصوص مامتك......"

واقترب من أذنه.

*****

دفعت (الأم) بالباب فجأة لتقطع الحوار الدائر، وأمسكت بـ(سعيد): "بتكلّم مين!؟"

سألته وهي تنظر ناحية (الدمية) كمن استوعبت أنه يحدّثها، وكادت الدمية تتحرك وتنظر لها لتجيب على سؤالها، لكن منعها دخول (الأب) بعدها.

أما (سعيد) ببراءة مفتعلة ممتزجة ببعض التردد: "مفيش حد... ككك.. كنت بغنّي"

صفعته (الأم) صفعة أقوى مما سبقت، وخرجت وهي تشد (والده) لتتحدث بصوت عال معه: "شُفلك حل! الولد ده مش طبيعي!"

(والد سعيد): "وطّي صوتك ماتفضحيناش! كفاية الحبّة اللي فاتوا!"

(والدته) وهي تهدأ وتتنهد: "طب شفلك حل! ابننا بيضيع مننا!"

(والده) وقد أحس بالندم على تجاهله لمعاملتها القاسية في الآونة السابقة والتي أثّرت على (سعيد): "طب نعمل إيه!؟ انتي لسّه فاكرة بعد ما الواد اتعقد منك!؟"

(والدته) غير مبالية بذلك الاتهام، وبقلب قاس طرحت الفكرة: "أنا هاقولك نعمل إيه.. نوديه دار للمجانيـ....

هم (الوالد) بكفه ليكتم فمها، وقد عاود صوته للعلو: "تاني!؟ انتي اللي اتجننتي بأة يا وليّة!! عاوزة تفضحينا رسمي!! وكمان عاوزاه يسمعك!؟ انتي أم انتي!!؟"

(الوالدة): "وانت أب انت!!؟ بص انت همّك كله على الفضيحة وأنا همّي بأة أرتاح من قرفه.. ابنك من يوم ما تاه مني في المولد وربنا ستر وطلع بخير من الكارثة اللي حصلت وهو مش طبيعي، خصوصًا لما ظهر بالعروسة دي وقال كسبها في المولد ولا لقاها.. أنا شاكة إنه سارقها من (قدري الساحر) اللي ساكن في الفيلا هناك.. من يومها وهو بيكلّمها لازق في وشها بيلبد لها زي ما تكون أخوه.. اتجنن.. ومسميها (نبيل) وبيدبح قطط، كلاب.. وحضرتك مسافر ومشيّلني الهم.. طب نسيت لما جيت من السفر وصاحبك جه بمراته وبنته يسلّموا عليك، هو عمل إيه!؟؟"

صمت (الوالد) وهو يستمع بلا تعليق، فأكملت (الأم): "كان هايدبح بنت الراجل! والحمد لله محدّش خد باله غيري... ابنك بقى خَطر... علينا وعلى الناس"

(الوالد): "ومين السبب يا (مدام)؟؟"

(الوالدة): "قلتلك (العروسة) دي مش طبيعية"

(الوالد) باستهزاء: "العروسة برضه!؟" ثم أكمل ببركان من الغضب: "استهتارك هو السبب، واللي ابتدى وزاد يوم ما تاه منك ورجع.. معاملتك ليه هي السبب! ضرب وشتيمة وذل وكأنه مش ابنك، وأنا اللي ساكت عشان مخدوع إنك بتعلميه الصح من الغلط.. كان لازم نفوق من زمان، الواد بقى جواه خلل! هرب من الواقع وعاش جوه خياله.. شيء طبيعي"، ثم صمت مبتلعًا ريقه وعيناه تذرفان الدمع من الحسرة والحزن

مكملًا لها: "احنا اللي عملنا كده في ابننا.. احنا مانستاهلش نعيش"

عادت الحياة لتدب في (الدمية) لحظة بتر تلك العبارة، ثم همست لـ(سعيد) الذي استمع لكل حرف قيل: "باباك عنده حق يا (سعيد)! ميستاهلوش يعيشوا!!! بالذات الست دي"

نظر له (سعيد) بعين مبتلّة بالدمع، وهو يحتضن (نبيل)، الذي همس له ببقية جملته التي قطعتها الأم لحظة دخولها الغرفة، لتبرق عينيه غير مصدق، ولم تسمعها (لمياء) لكنّها أحسّت بها من أعماق نفس (سعيد)!

*****

نفخت (الأم) عن عدم اقتناع: "انت هتديني محاضرة عن أصول التربية!؟ خلينا نخلص منه بأة في أي دار للمخابيل نرميه فيها.. أووف!"

(الوالد) وقد بدأ يعتريه الضعف والخذلان: "يا قساوتك يا شيخة! أنا مش مصدق! لو كنت عارف إنك هتبقي كده مكنتش عتّبت بيتك وطلبت إيدك! انتي اللي مفروض نودّيكي الدار ده مش (ابنك).. انتي السبب الأول والأخير في كل ده"

نظرت (الوالدة) بغضب ممتزج بالثقة وهي تقول له: "أنا هورّيك مين السبب، أنا ولا العروسة دي!"

ثم عادت دافعة باب الحجرة، والذي يقف وراؤه (سعيد) مستمعًا للحوار، ليسقط أرضًا وتسقط منه (الدمية) وسكين

كبير الحجم كان يمسكه أيضًا، ثم نظر برعب لـ(والدته) التي تغيرت للأسوأ، واشتد كرهه لها، وعلى غير الطبيعي ابتسمت لـ(سعيد) قائلة بصوت خافت: "(سعيد).. هو (نبيل) قالك حاجة علياَ!؟ عموماً متزعلش مني"

تابعها (سعيد) وهي تميل إلى (الدمية نبيل)، التي نظرت لها بخوف، وقد أمسكت بها بقسوة مطبقة على فمها، ثم دست أصابعها بداخله لتفسخه! فقفز (سعيد) متوسلًا: "لا!!"، ثم هم على السكين ليلتقطها، واحتضن قدمها مستعدا لطعنها وهي تدفعه بقوة، ليرى (الأب) وهو في صدمة ذلك الهجوم الضاري ويقتنع بكلام (الأم)، فيمسك بـ(سعيد) مكبلًا ذراعيه، ويحتضنه منتزعاً السكين وسط نزاع وعراك شديد، وصوت بات منبوحاً من كثرة الصراخ، وهو يشاهد (الأم) وهي تمزق (الدمية) إرباً وتلقي بها على الأرض لتتهشم إلى أشلاء، و تنبثق منها دماء كأنّها بشرية!

تسمر (الأب) مكانه من المشهد، بينما نظرت (الأم) ببرود مؤكدة: "صدّقت؟ قلتلك العروسة دي مش طبيعية"

صرخ (سعيد) بحزن: "نبيييل!! نبيييل!!"، ثم نظر بكره شديد ناحية (الأم) كمن أصبحت عدوة لدودة له، بينما أدرك (الوالد) أن الأمر قد خرج عن السيطرة، وهناك شر ما دُفن في قلب (ابنه) ولابد أن يتعامل معه، فهداه الأمر إلى حرقها، فصاح لـ(زوجته): "احرقيها!"

استجابت (الوالدة) للأمر ململمة بقايا (الدمية)، ثم حملتها إلى

دورة المياه وأضرمت النيران بها، و(سعيد) يصرخ بشدة حتى جذب صراخه (الجيران).

كعادة (الجيران) في تلك الآونة، دائما ما يستمعون إلى توبيخ وصياح (الأم)، وعلى غير العادة أن يقابل صياح (الأم) صراخ (سعيد) المُقلق والمريب، مما أكد لهم أن هناك في الأمر شيئًا ما، وأكد ذلك رائحة الحريق الذي لاحت خارجةً من شقتهم، فتزايد عددهم متجمعين في قلق ليطرقوا الباب بعنف.

*****

نظرت (الأم) ناحية الباب، فهمّت بإطفاء النيران، ثم أشارت لـ(زوجها) قائلة: "خد الواد وامشي على الدارِ سلّمه.. أول ما نفتح الباب قُلّهم هوديه المستشفى.. وأنا هتصرَف"

نظر (الأب) متعجبَا إلى خطط (الأم) الشيطانية وسرعة البديهة، بالإضافة إلى أنه قد فاض به الكيل منها، وأحس بالضعف وعدم القدرة على التفكير، فعزم على تنفيذ أمرها بلا نقاش، على أن ينتهي من هذا المأزق وينتهي منها. حاول السيطرة على (سعيد)، الذي فك منه للحظة مسرعًا كالصاروخ ناحية أشلاء (نبيل)، عابثا بها وهو يبكي بحِرقة الفراق، فأمسك به مرة أخرى، وفتح الباب ليجد (الجيران) متسائلين بأصوات مختلفة: "خير يا (أبو سعيد) خير؟؟ فيه إيه!؟؟"

(الوالد): "مفيش يا جماعة.. (الولد) متعوّر هوديه المستشفى"، وأسرع مختفيَا عن أنظارهم رافضا بشدّةً جميع طلبات

المساعدة التي عُرضت عليه، أما (سعيد)، فقد أصيب بإغماءة لشدة حزنه على صديقه وجليسه"

في حين أسرعت (الأم) بوجه عابس وكأنه لم يهتز لها شعرة لدموع (ابنها)، قائلة بمنتهى الوقاحة وقلة الذوق: "خير... إيه اللمة دي إن شاء الله!!؟ الواد قليل الأدب وكان هيحرق الشقة والنار طالته.. سيبونا في حالنا بأة!"، وصفعت الباب في وجوههم، فنظر الكل لبعضهم البعض متفقين على سفالة تلك المرأة هذه الأيام، وقد ظهرت على حقيقتها، على عكس زوجها الطيب فهو شفيعها، ولكن عزموا هذه المرة أنه لو احترقت تلك المرأة أمامهم لن تهتز لهم شعرة بسبب رد فعلها السافل هذا، فتفرقوا كلٌ على سكنه، وكأن شيئا لم يكن.

*****

من وراء الباب أسرعت (الأم) المتعجرفة ناحية أشلاء (نبيل)، وابتسمت قائلة كأنها تتحدث له: "انت فاكر (عم قدري) كان هيسيبك يا (نبيل) تهرب منه كل الفترة دي!؟"

ثم انطلقت ناحية الهاتف ذي القرص الدوار، وطلبت رقمًا وعيناها تتحولان إلى زجاج، وفمها يتسع حتى أذنيها بابتسامة انتصار، وهي تتفوه بصوت مخيف وخبيث: "(نبيل) خلاص و(سعيد) انتهى.. أيوة كان عارف وقرر إنه يكشفني بس لحقته.. (العيلة) اتْدمّرِتْ خلاص.. أنا؟ همشي كأني عزّلت.. (أبوه)؟ هيموت.. مش هيرجع البيت خلاص"

*****

كلما تعمقت (لمياء)، كلما أدركت حجم المؤامرة التي تحيط بـ(سعيد)، فأدركت أنه قد ارتكب ذَنبا ليدفع ثمنه حتّى سلبت منه إرادته وتحكم الشر بداخله، وبدأ يتخلل ليقضي على أسرته بخطة محكمة!

فمجرد إيداعه في دار المجانين، وقد تمّت تهدئته بالعقاقير المخدرة، انطلق (الأب) عازمًا كل العزم على مناقشة جديّة مع (الأم)؛ للوصول إلى حل بشأن التغير الجذري الذي اعتراها، وبات واضحًا وبعصبيتها غير المعهودة من قبل. هناك خطب ما بها.. أصبحت مخيفة!

كانت الشمس تغرب، وهو يقود السيارة وتتراكم الهموم على صدره، تدور في خلده عدة تساؤلات: كيف آل بحياة بيته هذا المآل!؟ كيف تغيرت زوجته بعد عودته من الخارج هكذا!؟ كأنها شخص آخر!! و(سعيد) الذي احتضن خياله ليطوف به بعيدا عن الواقع!؟

فبدأ يبكي رغمًا عنه ويرشف بعنف، كل سنوات العمل بالخارجِ ليجني من مُرِّها الأموال ليسعد بها أسرته ذهبت هباء، وبالتأكيد سينفقها على ابنه لعلاجه في صراعه ضد الخيال، وزوجته التي سأم منها على عكس المألوف، كان من المفترض أن يزداد اشتياقه لها.

تمنى الموت للحظة، فنظر للمرآة الخلفية، وخيل له أن (زوجته) جالسة ورأسها تستند للخلف كأنها نائمة.

علي الفور التفت ليرى الأريكة فارغة!

أدرك أن الهم والتعب يُضفيان على واقعه طابعًا مرعبًا، لكنه تأكد أنه لم يتخيل؛ لقد نظر للمرآة مرة أخرى، ليرى (زوجته) بعينين زجاجيتين وفمًا متسعًا مشقوقًا حتى أذنيها، لا يدرك هل تبكي أم تضحك له، كل ما أدركه من نظرتها هو نيتها على الشر، فصرخ لكن صراخه لم يكتمل؛ عندما التف حول عنقه رباطًا مخمليا، وهو يشعر بكائنات غريبة غير مرئية تسحبه خارج السيارة عبر النافذة.

حاول المقاومة والملاص لكنّه فشل، وأدرك موته الوشيك، فأغمض عينيه ليجد نفسه وسط ظلام دامس، وصوت السيارة يبتعد عنه لتصطدم بحائط لم يكتمل تشييده في منطقة مهجورة على الطريق. وعندما فتح عينيه وجد نفسه وسط مكان تنبعث منه شتى أنواع الصرخات والتأوهات لكنه لا يرى شيئا، لكنه شعر بيد تسحبه برِفق هذه المرة في اتجاه الصرخات عبر باب كبير يشبه ذلك الباب الموجود في بدروم (فيلا قدري) ليغلق عليهما، وكأنه يبتلعه.

وظلام دامس!

حاولت (لمياء) أن تشاهد مصيره لكن قابلها ظلام!

تساءلت كيف لها كمدوّنة أن تُمنع من رؤية ما وراء ذلك الباب!؟

تسارعت وازدادت دقّات قلبها فضولًا، فحاولت تكرير المشهد

عدّة مرات، لكن ضايقها عجزها عن متابعة ما وراء ذلك الظلام.

إلى أن استسلمت، وأدركت أن لكل وظيفة حدودها داخل المكنون، وهذه آخر حدودها. وتذكرت (سعيد) بدار المجانين، وقد تُرك يتيمًا بلا أب ولا أم ليناشد جدرانه الأربعة.

*****

فتح (سعيد) عينيه وهو يشعر بدوار رهيب. حاول التحرك فإذا به عاجزًا مرتميًا على الأرضيّة، لينظر حوله فيشاهد غرفة تقترب جدرانها لتضيق عليه الخناق، وسرير حديد مكسو بإسفنج ملصقا بشريط لاصق كالكفن، عليه مرتبة قذرة تنبعث منها رائحة بول مُعطّنة ومُقرفة، عليها ملاءة بُنية اللون وغطاء مهترئ غير مهذّبين، بجانبه منضدة صغيرة جدًّا، ثم مر بعينيه ورؤيته مشوّشة، ليخيل له أن جدران الغرفة مازالت تزداد ضيقًا لتقترب من بعضها لتخنقه، ثم لاحظ أنها مَكحوتة ومنقوش عليها رسومات مخيفة، رسمها كل المرضى السابقين له، فبعثت الاكتئاب في صَدره؛ وفي نهاية الغرفة ستارة من المشمّع الممزّق لتتيح له رؤية الصنبور وحفرة في وسط الأرض كدورة مياه بلدي، لتضيف على الغرفة رائحة لا تحتمل عما قَبلها، لكنّه يحتاج لتلبية نداء الطبيعة، فزحف بوهن شديد نحو دورة المياه لكنه عجز، ليجد يداه مربوطتان..

فصرخ: "الحقووووني!!"

أنصت (سعيد) وهو يسمع تكة المفتاح، ليفتح باب حجرته

وتظهر أمامه سيدة هيئتها تشير إلى الثلاثينيات، حركتها رشيقة، وهي تقترب ليتفحص ملامحها بصعوبة، ذات بشرة قمحية، يستدير وجهها الجميل ليبدو كالقمر الساطع، وكأن رأسها ليست ملائمة لجسدها ذي البالطو الأبيض، ثم مالت بجسدها له قائلة: "إزيك يا (سعيد)؟"

لم ينطق (سعيد)، غير أنه نظر ليديه الموثقتين، فأجابته وهي منزعجة من منظره المُحزن: "هَفكّك بس توعدني تسمع الكلام"

أومأ لها (سعيد) مستسلمًا لشرطها، فحررت يديه ليحاول النهوض وهي تتابعه بعينيها، ثم قال بصوت مبحوح: "عاوز الحمام!"

فأشارت له موافقة، ثم اعتدلت في وقفتها: "هستناك برة لما تخلص نادي عليا.. بالمناسبة أنا (طنط علا)"

*****

وقع الاسم على مسامع (لمياء) كوقع الصاعقة؛ إذ دققت في ملامح وجه (علا) جيدا و قارنتها بذاكرتها الضعيفة جدّا وبالصور القديمة التي لاحت لها، فإذا بها (والدتها)، ذات القلب الجميل الحنون.

ذرفت عيناها دمعا ثم تحدثت: "ماما علا... وحشتيني"

*****

انتهى (سعيد) ثم نادي: "طنط علا"

ابتسمت (أم لمياء) بعد عودتها للداخل متسائلة: "قولي بأة يا

(سعيد) نفسك في إيه؟"

رد (سعيد) بأسى متوجسًا الخيفة منها، لكنه تجرأ وابتلع ريقه: "نفسي (نبيل) يرجع"

(علا): "نبيل مين؟؟"

(سعيد): "صاحبي"

(علا): "طب هو فين وأنا أجيبهولك؟؟"

لم ينطق (سعيد)، فاكتفى بالنظر للأرض وعيناه يملؤهما الأسي.

ابتسمت (علا) وربتت عليه رغم عدم رد (سعيد) وعدم فهمها لحزنه: "معلش لما تخرج من هنا هتقابله تاني"

(سعيد): "هخرج امتي؟؟"

(علا) محافظة على بسمتها الحنونة: "لمّا تخف يا حبيبي.. شوية تعب بسيط عندك وهتخف"

ابتسم سعيد لكلمة (حبيبي)، لم يسمعها منذ فترة بهذا النقاء والصدق من والدته.

ثم اتجهت (علا) ببصرها وهي مشمئزة من منظر السرير، وتدرك أن إمكانيات الدار ضعيفة جدا، فقامت بتوضيبه: "هه! خلاص ننام بأة عشان ترتاح وتخف على طول؟"

(سعيد) مستسلمًا: "حاضر"

*****

في بداية الأمر لاحظت (لمياء) أن (سعيد) لا يتقبل موت (نبيل)، ولاحظت متابعة (قدري) له شبه الأسبوعية، ولاحظت مدى تعلق (والدتها) به، كأنه جين يسري في العائلة يرتاح لملاقاة (سعيد)، فاعتنت به كوالدته محاولةً الموازنة ما بين عملها وبيتها. أضفت عليه كمية حنان جعلت الدموع تنهمر من (لمياء) بلا توقف، تمنّت أن تعود بها الأيام، أحبتها رغم ذكراها الضعيفة، إنه الحب التلقائي ما بين الأمهات وأطفالهن.

على عكس بقية الممرضات بالدار، كانوا يعاملون الآخرين معاملة قاسية، وكثيرا ما تشاجرت (علا) مع البقية بسبب تلك المعاملة، أما (سعيد) فكان تحت حمايتها، وقد بدأ يتماثل للشفاء، وتقبّل خبر وفاة (والديه) بهدوء شديد، وقد وصل له سبب الوفاة طبيعي للأب وتلته الأم حزنا، وهذا فسر عدم زيارتهما له.

وفي يوم شاهدت (علا) إحدى الممرضات وهي توبّخ (سعيد) بقسوة، فتعاركت معها وعنّفتها بقسوة، ليتم عرضهما أمام (الطبيب النفسي المشرف)، والذي تصادف وجوده اليوم من الأسبوع، ليصلح بينهما، وانتهى الأمر بطلب (علا) لكفالة (سعيد)!

تعجب الطبيب من طلبها قائلًا: "انتي عارفة يا (علا) (سعيد) عنده ايه؟؟"

صمتت (علا) في انتظار تفسير، ففسر لها (الطبيب): "مفروض تبقي عارفة يا (علا) بحكم خبرتك يعني.. بس عندك حق هي

حالته نادرة شويّة!"

ثم عدل من منظاره الطبي وأخرج من درج مكتبه تقريراَ مفصّلا بالحالة مكتوبا عليه بخط عريض (سعيد القماش) (SCHEZOPHRENIA)، ثم تنهّد وبدأ يشرح لها تفصيلياَ: "بُصّي يا ستّي.. أنا مش معاكي إنك تكفليه عشان اللي زيّه ممكن ينتكس ويبقى أشد وأخطر من الأول"، ثم تنهد بأسف مكملًا: "باختصار، (سعيد) يا (علا) عنده حالة فصام متأخرة جدا من النوع المركب"

"زي ما انتي عارفة، الفصام ده مرض عقلي بيبوظ التفكير والسلوك.. ممكن يبان الشخص قدامك طبيعي بس بتظهر منه تصرفات غريبة لما تقربي وتتعاملي معاه.. أكيد أخدّتي بالك إنه عايش في عزلة وانطوائي! مش كده؟"

أومأت (علا) له بنعم، فأكمل: "اللي جالي أو اللي عرفته إن قسوة أهله هي السبب، وإنه دايماً بينادي على شخص اسمه (نبيل) اللي عمره ما جه ولا زاره.. أنا خايف إني أقولك إحساسي إن (نبيل) ده مش موجود.. فكونّا بنعالجه فده بينقذه من حاجات كتير ممكن تحصلّه"

(علا): "زي إيه يا (دكتور)؟؟"

(الطبيب): "ببساطة ممكن يتخيّل (نبيل) ده شخص حقيقي قدامه، وممكن هو اللي يتصرف كأنه (نبيل)، مش معروفة بس ده حسب ضعفه النفسي وسيطرة المرض عليه، يعني انقسام

في الشخصية، ودي حالة أو مرض غير الفصام بنسمّيها الاضطراب العقلي.. حالة (سعيد) دي عبارة عن مرض عقلي من النوع المركب.. ممكن يكون سببه نفسي بس بيأثر على كيميا المخ وبيبقى فيه أعراض انسحابية بتخرجه من الواقع كتير وبتجبره على الانطوائية، ومش بعيد يكون السبب في أدوية غلط أو السبب وراثي، واللي زي حالته ممكن يتقبل أي مرض عقلي جديد"

"المشكلة إنه عمره ما هيقتنع إنّه مَريض.. ممكن يحس بنفسه ممكن يحس بمرضه يتوتر... يتعصّب، لكن عمره ما هيعترف بيه"

"الفصام بيخلّيه يحس بهلاوس سمعية، بصرية، وممكن تكون لمسية أو شعورية.. يعني يكون شايف أوضته بمنظر غير اللي انتي شايفاه، يكون شايف ناس تانية أو شايفك واحدة تانية -بشكل تاني يعني-، يسمع أصوات تانية وانتي بس اللي معاه.. الأصوات دي ممكن تجبره على حاجات خطر، ممكن تخليه ينتحر!"

(علا): "طيب يا (دكتور) ممكن أعرف لو أخدته عندي يعيش في البيت ممكن تصرفاته تبقى عامله إزاي؟"

نفخ (الطبيب) غير مقتنع مشبّكًا أصابعه ليستند برأسه على يديه: "مصممة برضه!؟"، ولم ينتظر ردًّا منها؛ إذ عدل من وضعه ليقلّب صفحات مطبوعة مرفقة بالتقرير مجيبًا: "بصي كذا حاجة:

- اكتئاب وكوابيس وهلاوس.. بيهتم بعالم مش موجود.
- معظم الأوقات مش هيهتم بترتيب أوضته أو نفسه أو لبسه.
- نوم كتير وعميق أو أرق فظيع.. بحالات يعني!
- ممكن يقلب فجأة في التعامل.. يبقى كويس النهاردة، بكرة قليل الأدب.
- مفيش عنده تركيز.
- عداوة غريبة ممكن توصل للقتل.
- مفيش إحساس بأي مصيبة تحصل قدامه.. يعني لامبالاة وتبلد في المشاعر، وساعات العكس.
- دايما يحس إن حواليه مؤامرة ضده.. ممكن يؤذي نفسه أو غيره أو يهدد بكده.
- نسيان فظيع.
- نشاط رياضي قليل.
- يكتم البكا و ممكن يبكي كتيييير جدًا.. زي ما قلتلك بحالات!"
- حساسية للضوء والألوان.
- وسوسة، ودي حوار تاني له أعراض تانية.
- ممكن.....

قاطعته (علا) خائفة: "(دكتور).. مفيش علاج نهائي؟؟"

(الطبيب) بنظرة تأملية لـ(علا) تنم عن اعتزازه بها: "(علا).. أنا خايف عليكي وعلى اللي عندك في البيت.. حتى لو اتعالج ممكن يرجع تاني وأشد!"

(علا): "أنا اقتعنت بكلامك يا (دكتور).. بس أنا مشفقة عليه وحبيته وعاوزة أساعد في علاجه هنا!"

(الطبيب): كده تمام.. إنما عندك في البيت صعب.. صدقيني"

هزّت (علا) رأسها تأييدًا للطبيب في انتظار بقية الحوار فأكمل:

"أولًا: عامةً الأدوية بتساعد جدا، بس انتي عارفة الدار هنا امكانياته ضعيفة مش هيقدر يوفّر غير للعاملين فيه بس وأهو نشاطه خيّر، بس انتي أكتر واحدة بتساعدي في علاجه بطبعك الكويس على عكس شوية الضايعين اللي هنا، بمعنى إنك بتعوضيه حنان الأم اللي فقده من فترة وده كويس"

"ثانيا: اوعي تكلميه عن حالته، بس حاولي تخلّيه يثق فيكي أوي عشان تقنعيه بالحقيقي عشان يشوفه بس، واللي مش حقيقي عشان يبعده عنه أو يطرده من دماغه.. ممكن تحفزيه شوية بشوية، وخليكي واثقة من نفسك عشان تعرفي تقنعيه كويس"

"ثالثا: حاولي تشغليه يا (علا).. متخلّيش دماغه تفضى عشان هلاوسه مترجعش تاني.. ساعات جلسات الكهربـــــــ......

(علا) بقلق وذعر: "لا يا (دكتور) بلاش!"

(الطبيب) كأنه لم يسمعها: "...بتنفع لحالات الفصام الحادة بس!"

ثم أغلق التقرير خاتمًا: "أتمنى تعرفي تساعديه!"

أطرقت (علا) رأسها للأرض من التفكير: "مش هسيبه يا (دكتور).. بس ممكن أبقى أعرض عليك أي مشكلة تقابلني!؟"

أومأ لها (الطبيب): "مفيش مشاكل... اسمعي كويس يا (علا) المكان هنا مش مُؤهّل للعلاج، هو مجرد مكان إيداع بس.. انتي عارفة إني ممكن أنقله من هنا وأوديه مستشفى بس هتكلّف وهو معندوش أهل.. لو كان بإيدي كنت أخدت كل اللي هنا انتي عارفة النظام.. أنا متطوع بنبطشية يوم في الأسبوع، و مرتّبك مصدره من فاعلين الخير الطيبين والكُرَمَة، فيا ريت متدخّليش نفسك في مشاكل، ده أكل عيشك برضه، وبالتوفيق"

أومأت (علا) متفهمة مبادرة ونية الطبيب الحسنة، وقد قررت أن تساعد (سعيد) ابتداءً من الغد، فمرت عليه وودعته عائدة إلى منزلها حيث (لمياء) الصغيرة بانتظارها.

وكعادتها تسير حتى بيتها لقربه، لكن استوقفها بكاء، فتوقفت مستديرة نحو الصوت، فوجدت طفلة جميلة ذات وجه باك وقد بدا عليها الانهيار.

أسرعت لها (علا) مربّتة على كتفيها، مائلة بجزعها عليها وسألتها: "مالك يا حبيبتي؟"

(الطفلة): "مش لاقية جدو"

(علا): "طب مش فاكرة كنتوا بتعملوا إيه؟"

(الطفلة): "لأ"

نظرت (علا) حولها باحثة عن أي خيط يدلّها عن مكان (جد الطفلة)، التي زاد بكاؤها: "أنا خايفة يا (طنط)!"

(علا): "متخافيش يا سُكّر أنا هودّيكي لجدّك"

ثم همّت باحتضانها وهي تسألها: "انتي اسمك إيه!؟"

رفعت (الطفلة) بدورها يديها لتحتضن (علا)، ممسكة بحقنة بها سائل أسود اللون، وقد تبدلت ملامح البراءة بها إلى ملامح باردة باهتة مخيفة، وصوتها العذب إلى صوت مخيف سَرَى في أذنها: "اسمي (داليا)"

ثم غرزت إبرة الحقنة ودسّت سائلها بكامله في رقبة (علا) على حين غُرّة، لينتشر داخل جسد (علا)، التي ابتعدت في فزع وسقطت في وهن شديد، وابتسامة (داليا) لا تغادر وجهها، تتابع (علا) بعينين زجاجيتين، ثم نظرت لـ(قدري) الذي اقترب من جسد (علا) ليتأكد من سريان مفعول السائل.

*****

صرخت (لمياء) من المفاجأة! لقد اكتشفت لتوها أن (قدري) تسبب في قتل (والدتها) بسحره الغريب.. تعجبت: "هل كل هذا لمجرد حبِها لـ(سعيد)!؟ هل أصبح (سعيد) ملكية خاصة لـ(قدري) ليعاقبه كيفما يشاء ويقتل من يقترب منه!؟"

حاولت الفكاك من الأنابيب وهي تصرخ بشدة وحرقة:

"مااااماااا!!!"

وعَلا سبابها لـ(قدري) ووعيدها له، وقد أدركت أن هذا (الرجل) هو جليس الشرِ وليس (سعيد)؛ إذِ (الثاني) هو ضحية أفعاله الطفولية التي لا يُلام عليها، والتي سبَبت بكارثة ليس له إدراك بها، لكن (الرجل) لم ولن يتركه لحاله، بل أخذ يراقبه منذ أن عثر عليه، وقتل كل من يقترب منه، وحوّله إلى مريض نفسي دون أن يدرك.

ثم فكرت.. ماذا لو لم تصبح (مدوّنة)؟ لكانت في عداد الموتى لمجرد بداية اقترابها وتعلقها بـ(سعيد).

ثم تذكرت عبارة (المدونة العجوز) السابقة متكررة بخلدها الشارد: "صدقيني هتكتشفي قد إيه انتي في أمان هنا، ومسيرك هييجي (المرسال) اللي هيحررك"

حينها سرى تدفق غريب بالأنابيب على غير الطبيعي، جعلها تتألم وتتأوه، فأدركت سببه؛ لقد زاد عليها الضغط ولم تبح بما شاهدته بالكتابة، فتوجّهت نحو الآلة الكاتبة وبدأت تكتب؛ فإن كانت الكتابة سببا للراحة فلابد أن تكتب حتى وإن تكررت الكتابة مع كتابات المدونة السابقة"

ونظرت إلى النافذة في انتظار (المرسال) الذي لم يأت بعد!

وفور انتهاء الكتابة وقد وصل فضولها إلى ذروته، تابعت ماذا حدث بعد قتل (داليا) لوالدتها.

*****

أصبح (سعيد) وحيدًا مرة أخري.

استيقظ اليوم التالي على خبر وفاة (علا)، والذي قيد وفاة طبيعية ولم يكتشف أنها قُتلت، واستقبله بصدمة رهيبة. وكأنه اليوم المنتظر، دلفت كل ممرضة قاسية شمتانة لتعطيه قدرا من (النفسنة) فبات يُعامل معاملة قذرة من الجميع، ضرب وسباب وتعذيب جسدي ونفسي، ولأول مرة يتم توصيله بالكهرباء بلا داعي لتعبث بمخه وتثقب خلاياه العصبية، وتتدهور حالته مرة أخرى، حتى ابتعد عنه طريق الشفاء وفرّ منه، بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى.

وما زاد الطين بَلة أن أصبحت وجباته مستقطعة مختلطة بعقاقير مهلوسة، أنسته حياته وأفسدت ذكرياته، برمجته على حال جديد. استغل الجميع بأنه وحيد ليس له (أهل)، وقد بدأ فعلا في النسيان؛ ولما كانت الأوقات الجميلة والسعيدة تمر بسرعة، أصبح الوقت بعد وفاة (علا) بطيئًا جدًا، وقد ظن أنه لا يمر. لكن يتقدم به العمر بسنوات قليلة وهو محجوز بلا أنيس غير نفسه، غير مسموح له بالتعامل مع المرضِ الآخرين كمن تم حبسه انفراديًا بدرجة مخيفة، فأصبح نسيًا مَنْسيًا، وراجت حوله الإشاعات فأخاف الجميع. لقد تسببوا في تحويله إلى شخص آخر على غير عهده السابق. ما أشبهه بالمسخ!

لكنه لم ينس (نبيل) قط، لم يستسلم للمقولة الشهيرة بأن (الوحدة خير من جليس السوء).

جليس السوء الذي مات مبعثرًا ومحروقًا.

كلما أحس بالنسيان، أخرج فروة شعره وشاربه الكثيفان، اللذين اختطفهما قبل اقتياده عنوة إلى هذا المكان القاسي، ليطالعهما مهما مرت السنون.

كل ما يتذكره عن حياته هو (أب وأم) متوفيان، كما ذكرت له الممرضة القبيحة التي تؤويه الآن، وشقة يحاول تذكر تفاصيلها، لكن لا فائدة.

يوميًا تزداد حالته سوءًا بعد بدء تعاطيه العقاقير المفسدة المنتهية صلاحيتها، المقدمة له عمدًا من ضعاف النفوس ليتم تجربتها عليه، فالمكان مجاني! ولابد أن يدفع الثمن بحياته وعقله، الذي تعايش بصعوبة وبحث باطنه عن الفكرة التي ستنقذه من مأساته، سالبة إرادة (سعيد) وعاصفة بقلبه نحو المجهول.

فصرخ (سعيد) في يوم ما على (نبيل)، ليجيبه على الفور!

*****

شاهدت (لمياء) لحظة تحوّل (سعيد)، وازدياد الاضطراب العقلي بداخله، ليمتزج بحالة الفصام التي يعاني منها، عندما صرخ: "(نبيييل)! محتاجك يا صاحبي... (بابا)، (ماما)، طنط (علا)... سابوني كلهم.. جابوني هنا أتعالج بس ماتوا محدّش منهم هيجيلي... انت فين يا (نبيل)... رد عليّا!"

وبغياب تام عن الوعي، وعلى غير العادة لم يردّ صدى صوته عليه؛ إذ ارتدى فروة الرأس التي احتفظ بها ولصق الشارب

بلعابه، ليرد بصوته الأجش وملامحه المريبة وعينيه الباردتين وله فم مفتوح يتسع عن قصد، يتحدث به بوصلة من السباب، وبعدوانية لا تُوصف، وأفكار سوداء، وغيرة عمياء على (سعيد)، على نفسه المسلوبة، المدفونة. كلما سقط الشارب والفروة تحدث كـ(سعيد)، وكلما لصقهما تحول إلى (نبيل). تفكر (لمياء) به معلقة عليه كمن يِضغط له على زر تحكم!

إذ تقمص (سعيد) شخصية (نبيل) بشكل دائم ليصبح جليسًا له في وحدته، وتتحول المقولة إلى (جليس السوء خير من الوحدة).

جسد واحد بشخصيتين مختلفتين، إحداهما مُسيّرة خاضعة، والأخرى مُخيّرة للشر وفقط: (سعيد) و(نبيل).

ما أدركته (لمياء) أن (قدري) يتابع (سعيد) من بعيد كالقطار الغاضب، ينتظر أن يمر (سعيد) خارجًا عن قضبان الدار ليمر على قضبان (قدري) ليدهسه بلا هوادة.

وأدركت أن (سعيد) قد أيقظ (نبيل) بداخله، النسخة الأخرى والشبيهة لصفات (دميته) الجاحدة، لكن بلا ذاكرة لذكرى كارثة المولد وما بعدها، لتبهت تدريجيًا وتختفي من ماضيه.

*****

امتلأ الدار واكتظ بالمجانين، وحان وقت التسريب.

فسياسة الدار المتهالكة هي التخلص من الحالات القديمة رغم أنفها حتى تستقبل حالات جديدة.

وقع الحظ العاثر على (سعيد)، الذي سرت في دمائه جميع أنواع العقاقير، وقد أحدثت عطبا ما به، بات أثره في تكوين شخصية جديدة بداخله، وكثرة نسيانه.

وفي ذلك اليوم جاءت له (الممرضة) بممرضين ضخمي الجثة، فابتلعت ريقها منادية من وراء الباب: "(سعيد)!"

جاءهم صوت تحدث من الداخل، فكررت الممرضة ندائها: "(سعيد).. انت خلاص خارج!"

(سعيد) وصوت خطواته يقترب: "خارج فين!؟"

(الممرضة) وهي تلقي بورقة له: "لبيتك.. ده العنوان بتاعك.. كان معانا يوم ما جيت هنا"، ثم همّت بفتح الباب وهي تشير للرجلين بالاستعداد.

وعلى غير المتوقع، لم يخرج عن (سعيد) أي رد فعل عدواني، لكن رائحة الغرفة كانت قذرة بمعنى الكلمة، أحس الجميع بالدوار بسببها، فأسرع الرجلان باقتياده للخارج، وتم العناية به، فاستحم، وتم تهذيب ذقنه وشعره، وأعطوه ملابس بالية واسعة عليه تكفي لستره، من باب الحفاظ على سمعة الدار، ودفعوه خارجًا وفي يده ورقة بعنوان منزله، وفروة رأس وشارب مبتلّين.

وتحدث لنفسه: "يااه يا (نبيل)! أخيرًا خرجنا من الكابوس ده!"

فرد على نفسه بصوت أجش: "مش مصدق يا (سعيد).. كنت

فاكر هنفضل هنا لغاية ما نموت"

(سعيد) في حيرة: "هنروح على البيت ونبتدي حياتنا.. إحنا كبرنا خلاص.. بس هنصرف على نفسنا إزّاي بأة!؟"

(نبيل): "هقولك بعدين!"

(سعيد): "بس لازم نشتغل ونعتمد على نفسنا"

(نبيل) ضاحكًا بخبث وفمه متسع: "طبعا.. بس مهما كِبرنا مش هننسى لعبتنا القديمة"

ابتسم سعيد بدوره.

وعن كثب يقف (قدري) وعلى فمه ابتسامة عريضة؛ انتصاراً بما مر به (سعيد) من عذاب، ثم قال: "الموت رحمة بالنسبة لك، وأنا مش هرحمك يا (سعيد)"

وكمن أصابه غضب عات عندما تذكر كارثة المولد التي أجهزت على مستقبله وحياته، ولفقدانه حفيدته، تبدلت ملامحه إلى الشر.

*****

حاول (قدري) استعادة (داليا) بشكلها لكنه فشل، وظل يكرر صناعتها بلا فائدة! ذات الروح لكن أشكال مختلفة. لذا عَدّهم للخدعة الكبرى، حين علم ببحث (سعيد) الدائم عن العمل لحاجته للنقود، فسهّل له فرصة عمل مُدبرة لـ(جليس أطفال)

براتب مجزي لاستقطابه إليها، معروضة في إعلان بجريدة غامضة مستغلا قوته السحرية، لم تكن صدفة قط!

على أن تنتقل هذه (الروح) وتسكن كل دمية بمعدل يومي؛ لإثارة فضول سعيد وتشتيت تفكيره، كسياسة لإضعافه وإضافة وقت حتى ميعاد الانتقام.

*****

والآن، بعد أن تيقنت (لمياء) من ماضي (سعيد) وما هو مُقبل عليه، عادت مرة أخرى لمتابعته بعد قتله لـ(هدايا) الجارة العاشقة، وقد تأكدت أنها حرب ما بين قوتين للشر. حاولت التفكير لأي فريق تنتمي، لقاتل والدتها أم المتسبب في قتل والدتها!؟؟

فضلت الحياد لهذا الوقت، لتشاهد الأمور وهي تأخذ مجراها.

ثم أحسّت بذلك التدفق الرهيب بداخل الأنابيب، فجلست وكتبت بسرعة شديدة لتستطيع اللحاق بالمعركة القادمة.

ثم وقفت ورتبت الأحداث في ذهنها.

(كارثة المولد) – (الدمية نبيل) – (والدا سعيد) – (دار المجانين) - خروج (سعيد) ونسيانه وبحثه عن العمل - قتله (للبواب) لحاجته للنقود - علاقته بـ(هدايا) وقتله لـ(زوجها) – محاولة الانتحار بحادث السيارة - نسيانه لما سبق مرة أخرى - فرصة عمل مُدبّرة من (قدري) وما بها من أحداث - تجدد علاقته

بـ(هدايا) - قتله لـ(هدايا) لاقتناعه بخيانتها له مع (نبيل) وغيره.

وطبّقت ذلك في الأوراق، ووضعتهم بقرب النافذة.

عندما سمعت خطوات ثقيلة وهادئة تقترب من النافذة، لتتوقف.

وتلمح شخصًا هادئ الملامح يطالعها بخوف شديد. حاولت تبين تفاصيل وجهه فلم تستطع، لكنه أمسك بالورق واختفى في لمح البصر!

فأدركت أنه قد تم تعيين (المرسال)، الشخص الوحيد الذي يستطيع الوصول إلى هنا، والذي يمكن أن يحررها من هنا.

فتسارعت نبضات قلبها، ما بين نوايا حسنة بممارسة دورها بمصداقية، ونوايا سيئة لخداع (المرسال) ليجذب مقعدها.

لكنها لم تتبين بعد من هو!

*****

(٨)

لم تكن صُدفة قط!

صرخ (سعيد) بمجرد استيقاظه؛ فضغط الكوابيس يفتك برأسه! حاول الهدوء، لكنه تذكر ما ارتكبه أو ما ارتكبه (نبيل) رغمًا عنه، فسقط من سريره وانطلق يعدو عبر شقته متعرقلًا في الملاءة التي سقطت بجانبه، وصولًا إلى شقة (هدايا)، وهو يبكي، يتمنى أن تندرج جريمة قتلها تحت بند الكوابيس التي لا ترحمه.

لكنه رآها، جثة هامدة دنّستُها الصراصير والحشرات من كل صوب. رائحة الدماء تفوح بأرجاء الشقّة، فصرخ فيها وهو يزيحهم: "(هدايا)!! حبيبتي!! (هداياااا)!! مش ممكن!!"

ثم صرخ بعلو صوته باكيًا: "نبيييييييل!!"

وبكل هدوء خرج الصوت الأجش: "اهدا يابني لا حد يسمعك"

(سعيد): "أنا هقتلك! هقتل نفسي عشان أخلّص عليك!"

(نبيل): "الكلام ده انتهى يوم ما رميت نفسك قدام العربية... انت فاكرني هسيبك المرة دي!!؟"

(سعيد) بغضب شديد: "يعني إيه!؟"

(نبيل) بلهجة آمرة: "هتروح شغلك عشان محتاجين فلوس.. وشوية شوية مش هيبقى ليك وجود يا (سعيد).. وغصبن عنّك

يا حبيبي مش بمزاجك"

(سعيد) بعنف: "مستحيل!!"، قالها وهو يبحث عن سكين ليقتل بها نفسه، وبمجرد أن وجدها أمسك بها، لكن كفّيه انفرجا رغمًا عنه لتسقط.

صرخ (نبيل): "افهم يا غبي! انت دلوقت تحت طوعي.. مفيش خطوة هتعملها إلا بإذني.. دماغك هي دماغي، فكرك هو فكري.. بس مستحيل شخصياتنا تبقى واحدة.. انت انسان ضعيف، أبوك وأمك وعلا دلّعوك.. حنّيتك بتخلي الناس تقرّب منك"

استسلم (سعيد) لنفسه مدركا الخطورة التي وصل لها باكيًا، وتحكم (نبيل) بات قويًا عليه، والذي أكمل: "حنيّتَك حببت الناس فيك، وبدأت تتْخلّى عنّي وجَنّبتني.. انت اللي جبتني الدنيا دي"، ثم ضحك بهستيريا رهيبة: "اللي بيحضّر عفريت هو اللي بيصرفه يا (سعيد).. وعشان تصرفني لازم تموت، وأنا مش هَدّيك الفرصة.. هتروح لـ(قدري) تشوف شغلك وتنسى (هدايا) الزفت دي، ومتخلّيش حد يقرّبلك تاني؛ عشان مش هيصبح عليه صبح، وحافظ على نفسك.. فهمت؟؟"

تدلت رأس (سعيد) شاعرًا بدوار رهيب. حاول أن يومئ لكنه فشل من ثقلها، فقال مستسلمًا: "حاضر"

*****

وجد (سعيد) أنه مُحاصر؛ لن يفكر، لن يخطط. لقد تأخّرت حالته وتطابق كل شيء ما بين (سعيد) و(نبيل) باستثناء

الشخصية، فعزم على إخفاء الجثة حتى لا يتم اكتشافها، لكن كيف!؟

فسأل (سعيد): "هنخفيها إزاي؟؟"

(نبيل): "مش هنخفي حد.. احنا هنمشي ومش راجعين هنا تاني"

(سعيد): "إزاي!!؟"

(نبيل): "انت عارف إن الشقّة محدّش هيشتريها نهائي.. هنطلب من (قدري) يساعدنا في الموضوع ده"

(سعيد) مشككًا: "قدري!؟ تفتكر؟؟"

(نبيل): "افتكر إنك أنقذت حفيدته"

أطرق (سعيد) برأسه، ثم فكر، فقاطعه (نبيل): "حتى لو فكّرت، خلاص رأيي اللي هيمشي"

لأول مرة شعر (سعيد) بالخوف من (نبيل)، حاول أن يطلب منه توصيله كالعادة، لكن (نبيل) تفّهم مستهزئًا: "عربية إيه بأة!؟ دي كانت هلاوس من الحادثة وأنا كنت بجاريك"

(سعيد) مندهشًا ومصدومًا: "يعني إيه!؟"

(نبيل): "يعني إحنا دايما واخدينها مواصلات، وعلى طول بتنام لغاية ما بتوصل"

(سعيد) مُدركًا الحقيقة ومعترفًا بها: "يعني كنت بَهلوس.. زي ما انت مش حقيقي وجوايا!!"

(نبيل): "........."

(سعيد): "مابتردش ليه!؟"

شعر (سعيد) أن (نبيل) انزاح لبعض الوقت لمجرد إدراكه بأنه مجرد هلوسة دماغية ووهم بداخله، لكنه حتما سيرجع مرة أخرى، لكنها فرصة لينهي على حياته! لكن بعد أن يدفن جثة (هدايا) أو يخفيها بطريقة لائقة.. لم يحتمل رؤيتها هكذا.

لكنه فجأة أحس بالأمل يدب داخله، وأنه يمكنه إصلاح نفسه!

يبقى إخفاء الجثة فقط، لكن كيف!؟

لن يستطيع الخروج بها، لعل أحدًا يراه!

عاد لشقته مرة أخرى ليحضر ما يجده من أدوات وملاءات لحملها، فجمع أغراضه وتوجه لشقة (هدايا)، ليجد جثتها مختفية!

*****

(نبيل): "مش قلتلك ملكش دعوة بالزفت دي"

(سعيد): "انت اللي اختفيت فجأة، فحاولت أخفيها بس ملحقتش"

(نبيل): "إيه!؟ أومال راحت فين بأة!؟"

(سعيد): "معرفش"

صرخ (نبيل): "(سعيد)! انت بتحوّر عليّا!!؟"

صرخ (سعيد) بدوره: "انت أكتر واحد تقدر تعرف أنا بحوّر ولا لأ!"

(نبيل) وقد هدأ: "عموما اللي حصل ده لمصلحتنا.. بينا بأة على (قدري).. الساعة داخلة على عشرة والإجازة خلصت!"

(سعيد) وهو في حيرة متلفّتًا حوله يكاد يُجَن: "ماشي...!!"

*****

أثناء وصول (سعيد) لـ(فيلا قدري)، لم يشغله التفكير عن (نبيل) الذي يتابعه، بل شغله موضوع اختفاء جثة (هدايا) بلا أثر.

حتى وصل لباب الفيلا وطرق.

فُتح له الباب دون إجابة!

دخل (سعيد) إلى ظلام دامس يشبه قصور الرعب، وصمت يطبق بالمكان، وكأن الفيلا قد خلت من سكانها، فصاح وهو يغلق الباب من خلفه ويبحث عن مفتاح للإنارة؛ فلم يخطر بباله يومًا أنه سيبحث عنه لعادته أن يجد الفيلا مُضاءة من الداخل قبل دخوله، لكنه لم يجد مفتاح الإنارة!

تعالت أنفاسه لدرجة مخيفة، وأحس (نبيل) بذات الشعور عندما قال: "سعيد! فيه حاجة غريبة!"

(سعيد) وهو يبتلع ريقه: "أنا حاسس بكده"

(نبيل): "طب نوّر بموبيلك"

(سعيد) وهو يبحث عن هاتفه: "نسيته"

(نبيل): "غبي!"

وفجأة أحس (سعيد) باهتزاز أسفله وكأنه يسير على أرض مخملية لينة، وسرعان ما تعود صلبة وكأن المكان يتحول من أسفله، فصرخ في قلق: "أستاذ (قدري)! (داليا)! حد موجود!؟"

لكنه سمع صوتًا مألوفًا له، يرد من عمق سحيق وينادي عليه: "(سعيييييد)"

(سعيد) متعجبًا ينظر يمينا ويسارا: "هدايا!؟"

(نبيل): "هَدايا ماتت يا غبي انت بتهلوس!"

أتاهما (الصوت) مستغيثًا: "(سعيد)... (نبيل)... الحقوني!"

صرخ (سعيد) متشجعًا: "(هدايا)! ألحقك إزاي!؟؟"

(الصوت): "الحقني يا (سعيد)... الحقني يا (نبيل)...."

وكأن الصوت مسجلا ليتكرر مرة تلو الأخرى.

هنا استسلم (نبيل) على غيرِ العادة: "يلا نمشي يا (سعيد).. (هدايا) عمرها ما هتنادي عليا وتستنجد"

سار (سعيد) نحو باب الفيلا ليفتحه، وما كاد يعدو للخارج، إلا بالمكان يهتز أقوى مرة أخرى، وأغلق باب الفيلا بقوة شديدة اخترقت أذنه، ثم شعر بحركة بجانبه وسط الظلام، فالتفت بحذر ناحية تلك الحركة، ليجد (هدايا) واقفة أمامه وقد

اختفت ملامح الشوق منها، لتسمك به وهي تضحك بهيستيريا رهيبة رجّت الفيلا بأكملها.

حاول (سعيد) أن يبتعد، لكن مسكتها قوية، فصرخ وهو يستغيث بـ(نبيل) ليرد عليه: "يا غبي دي هلاوس!"

لكن يبدو أن (نبيل) خائف من المواجهة؛ فقد صمت وأحس (سعيد) به يرحل للحظة، ليتركه في هذا الموقف العصيب.

فعدّل (سعيد) من استغاثته: "أستاذ (قدري)!! حد يلحقني!! يا نااااس!!"

عادت الإضاءة مرة أخرى، ليجد (سعيد) مشهدًا دمويًا جعله يتقيأ حتى يتأقلم على صعوبته.

لقد وجد مانيكانات لـ (والده ووالدته)، و(مُخلف البواب)، و(خالد زوج هدايا)، واقفين بحبال مخملية غليظة، بأجساد من خشب وعيون باهتة زجاجية، وأمامهم جثة كل شخصية ملقاة على الأرض ممثل بها، وقدري يتوسطهم ممسكًا بعدة دمى صغيرة كانوا يمثلون (داليا) لكل يوم، وأمامه (دمية داليا) الأصلية المحروقة.

لمّا كانت ملابس (قدري) مألوفة له، وهؤلاء الأشخاص مجمعين أمامه، كأنها ضربة قاضية له عصفت بذاكرته للوراء، وعليها بدأ يتذكر جيدًا... كل شيء!

قال (قدري): "اللي انت شايفه ده حقيقي دلوقتي.. إزيك يا (سعيد)؟"

لم يبادله (سعيد) التحية؛ لقد جف الكلام في حلقه!

(قدري): "يعني مش هترد!؟ طب خلي (نبيل) يرد"

تسمّر (سعيد) فلم يستطع الحركة.

(قدري): "طبعا افتكرت صح؟"

لم ينتظر إجابة، لكنه فعلا تذكر فجأة كل حياته في تلك اللحظة، لا يدري كيف! تذكر تدريجيا (كارثة المولد)، تذكر ذبحه للقطة، وتصرفاته الشيطانية التي بررتها (الدمية نبيل) كلعبة استهوته، حتى طبع على شخصيته، وبمجرد افتقاده له، نسج شخصيته من أعماقه، من الداخل، وها هنا يقف في مواجهة المتضرر الأول والأساسي لحماقته عندما كان صغيرا، فأدرك نهايته، فتمالك نفسه وقام بالرد: "أنا آسف"

ضحك (قدري): "لسة فاكر!؟ لو كنت سبت (نبيل) ليّا كان الموضوع خلص.. (نبيل) خلاك تقتل ناس كتير اليوم ده.. عارف كده ولا لأ؟؟ مستقبلي وسمعتي اتدمّروا، وفوق كل ده (حفيدتي) اللي بعزّها ماتت.. وجاي تتأسف دلوقتي!!؟"

اندهش (سعيد): "حفيدتك (ماتت)!؟ أومال مين دول!؟"

(قدري): "مكدبتش عليك لما قلتلك هعملك امتحان، الامتحان ده قست بيه فضولك وانت كنت فاكره امتحان للثقة.. اللي انت شايفهم دول يعتبروا عرايسي.. تقدر تقول جواهم روح (داليا)"

ازداد (سعيد) فزعًا، يتمنى ظهور (نبيل) بداخله ليستطيع

المواجهة.

أكمل (قدري): "و(نبيل) بعد ما اتحرق، انت حَييته جوّاك"

نظر (سعيد) دون رد وهو يرتعد.

(قدري): "يعني متعرفش!؟"

أدرك (سعيد) الحقيقة، لكنّه لا يقوى على الاعتراف؛ فبداخله صدام رهيب.

رد (قدري) على نفسه: "كنت تعرف يعني.. طب لما شفت (عروسة داليا) مفتكرتش (نبيل) نهائي!!؟؟"

هز سعيد رأسه نفياً.

(قدري) مبتسماً بزهو: "واضح إن عقلك باظ الفترة اللي فاتت دي"

(سعيد): "أنا آسف.. أنا فعلا شفت كتير بسبب (نبيل)"

(قدري): "لو سبتك تمشي هيرجعلك تاني بأي شكل، هيجيلك.. انت متدمر يا (سعيد).. جواك الشر نفسه"

(سعيد): "تقصد إيه!؟"

(قدري): "الموت رحمة بالنسبة لك يا (سعيد).. وأنا هخلّيك عايش بس عاجز، عاجز إنك ممكن ماتحركش طرفة عينك! نبيل هيفضل جواك يدمرك وانت عاجز.. هياكلك زي السوس لأنه مش هيعرف يعمل حاجة هو كمان"

انهار (سعيد) باكيَا: "لو كنت عارف إن (نبيل) هيسببلي الهم ده ماكنتش خدته منك.. هو اللي طلب مساعدتي!"

(قدري): "وهو طبيعي تسرق حاجة مش بتاعتك!؟ معرفتش قيمة الموضوع ده لما سرقت منك أبوك وأمك وطنط علا الممرضة!؟ فاكرها يا (سعيد)؟"

(سعيد) مصدومًا: "انت اللي عملت كل ده!؟"

(قدري) مبتسمًا: "أيوة"

(سعيد) نادمًا: "عرفت، وكنت صغير.. انت بتحاسبني على حاجة عملتها وأنا صغير ليه!؟"

(قدري): "ومين قالك إني بحاسبك انت بس!؟ نسيت اللي جواك!؟"

رد (سعيد): "انت السبب في اللي جوايا"

(قدري): "أنا شيلته منك وانت اللي تمسّكت واتعلّقت بيه ورجّعْتُه بنفسك.. بنفسك هه؟ هلوسة أو روح، انت اللي سمحتله.. كانت فرصتك يا (سعيد).. انت محكوم عليك وخلص الكلام"

استسلم (سعيد) لمصيره: "ودلوقت؟؟"

تحركت الدمى الصغيرة، والتي زاد حجمها وتحولت وجُوهها لأشكال مُخيفة، لتدفع بـ(سعيد) الذي ارتجف رُعبا حتى وصلوا إلى القبو، وفيه فاحت رائحة نتنة، وأشار (قدري) نحو الباب

الغامض: "هما عاوزينك هنا.. ادخل"

وانفتح الباب على مصراعيه، وتعالت الصرخات والتأوهات الصادرة منه!

بلع سعيد ريقه بصعوبة.. لم يجد غير الاستسلام.. لكنه سأل: "مين هما!؟"

صرخ (قدري) آمراَ متحاشياَ الإجابة والتفسير: "ادخل!!"

كاد رأس (سعيد) ينفجر من الغموض، مهيئًا نفسه بأنه على وشك الدخول في ملحمة لا يدرك نوعها، وأن الموت أرحم من ذلك المجهول الذي ينتظره، خاصة بصحبة آخر من يتمناه صديقًا الآن، (نبيل)! فتعالت دقّات قلبه وهو يشعر بقشعريرة تنتزعه من الداخل كأن روحه تغادره، وهو يهتز من الخوف.

لكنه تشجّع وأحس بالدمى تدفعه ببطء وبقوة كأنه عرض مسرحي رغمًا عنه، فنظر خلفه لـ(قدري) نظرة أخيرة، وهو يقترب من الباب الذي خرجت منه لفحات السقيع لتزداد القشعريرة بداخله.. هواء بارد برودة الموت!!

ثم لمح (قدري)، الذي ابتسم بانتصار، فصاح متسائلًا: "ولو عرفت أرجع!؟"

(قدري) بثقة والبسمة تتسع حتى أذنيه: "مش هترجع!"

*****

صرخت (لمياء): "ما تُدخلش ياغبي!! ما تُدخلش!!"

أدركت أنها الآن خارج حدودها، وأنه سيدخل البقعة العمياء، ولن تستطيع معرفة ما سيحدث له!

فشاهدت (سعيد) وهو يُدفع بغلظة مستسلمًا في اتجاه الباب، يبدو عليه الفزع، يحتضن نفسه من البرودة.

وفجأة خرجت تلك الخيوط المخملية لتغرس نفسها بجسده، وهو يتألم ويصرخ من الرعب. حاول الارتداد والعودة لكنه تأخّر، وبدأت الخيوط تسحبه بقوة، و(قدري) يشاهده فرِحا بتنفيذ خطته على أكمل وجه. واختفى (سعيد) في جوف الظلام، وانغلق الباب في وجه (قدري) ودماه!

ومن ناحية أخرى في وجه (لمياء)، التي أصبحت الرؤية لديها مُبهمة، فاكتفت بمشاهدة مانيكان (والدتها) وجثتها، لتتألم ويشتد غضبها، لا تدري ماذا تفعل، غير الكتابة ومحاولة التوصل لشخصية (المرسال)!

وعقدت قرارها: "هخدعه زي ما حصل معايا.. لازم أروح للفيلا!!"

ثم وضعت الورق بجانب النافذة، واتخذت جانبا متثاقلة، واختبأت!

فسمعت صوت الخطوات تقترب، وبيد تمتد لتختطف الورق، لكن (لمياء) كانت أسرع منه، لتمسك بيده بقوة كأنها تتشبث بآخر آمالها.

ثم نظرت محاولة معرفة (مرسالها)، وكاد قلبهما يتوقفان عندما

أدرك كل منهما شخصية الآخر!

تمتمت (لمياء) بفزع: "عم قدري!!؟ مستحيل!!"

(قدري) وملامح الطيبة تعلوه: "(لمياء) حفيدة فرح!؟"

*****

صرخت (لمياء): "أومال مين اللي هناك!؟؟"

باغتها (العم قدري) بحزن وأسى عبر النافذة: "نسخة (مانيكان) مني.. خشب معندهاش قلب ولا إحساس"

(لمياء) متعجّبة: "عرفتني منين!؟"

(قدري): "وهو حد يتوه عن عيلة الشيخة فرح اللي كلها بركة!؟ كنت بعزّ ستك أوي وأعرف عيلتكم واحد واحد.. عرفتك من السلسلة اللي انتي لابساها دي تخصها، ومستحيل أتوه عن عينيكي يا بنتي"

اندهشت (لمياء): "طب حصل كل ده إزاي!!؟؟ وإزاي ما اكتشفتش الموضوع ده وأنا بتابع وبدوّن!!؟؟"

(قدري): "عشان أنا (مرسال) بعدت أوي وما تعاملتش مع أي حد طول السنين دي.. تقدري تسمّيه خوف بعد (كارثة المولد)، (قلب المكنون) عيّن مكاني (مانيكان) عشان يدمر حياة (سعيد) لمجرد سرقته لـ(نبيل)، وعشان موت (داليا) هربت، وأنا حذرته يوميها يبعد، وحسّيت بعد كل السنين دي إني جبان وسكوتي هو السبب في كل ده.. ناس كتير ماتت من ضمنهم (والدتك)

بسبب سكوتي"

"(المكنون) كان بيختار ناس يموّتها بطريقة غامضة.. العرض بتاعي كان واحد منهم.. اللي بيختاروه بيشدوه للباب.. كنت بنفّذ من غير كلام، خوفا على نفسي منهم. الكارثة اللي حصلت فوقتني، وكانت فرصتي إني أهرب لبعيد عشان ينسوني، وقررت أرجع لمجرد إني تعبت من إحساسي كجبان.. قريت كل حاجة من يوم الليلة الكبيرة بتاعت (ستّك فرح) لغاية دلوقت"

ثم أردف: "أنا آسف يا بنتي.. متأكّد إنّك بتتْقطّعي من جوّاكي.. نفسي أساعدك"

لازالت (لمياء) قابضة على يد (العم قدري)، فازدادت قبضتها وبرقت عيناها الداميتان وهي تقول: "أنا عارفة تساعدني إزاي!"

(قدري) بحماس: "اللي تقولي عليه يا بنتي! أنا ندمان إني فكرت في نفسي أوي، ونفسي أصلح غلطتي.. نفسي الزمن يرجع ومسمعش أوامرهم"

وبدون تفكير طرحت (لمياء) الفكرة: "تبقى مدوّن مكاني! خصوصًا إن هتبقى كده في أمان! هنا اكتشفت إن الخوف من العقوبة أقوى بكتير من إحساس العقوبة نفسه!"

(قدري) وقد بدا عليه التقبل لمصيره: "فهمتك يا بنتي، وواثق منّك، إن كان كده هيريّحك ويصلّح غلطتي، فموافق!"

(لمياء) وهي متشجعة: "صدقني هيحل يا (عم قدري).. أنا لازم أنهي الموضوع ده لأخره"

نظر (العم قدري) إلى الباب المواجه إلى (لمياء)، الذي فُتح من تلقاء نفسه وكأنه يتفهم نية (لمياء) للتبديل فنفّذ أمرها، ليتقدم (قدري) بخطوات متثاقلة، وقد عانى من أعراضه الصعبة التي كادت توقف قلبه، لتتحرر (لمياء) وتتركها الأنابيب، وتغرز إبرها في جسده، ليتألّم وسرعان ما تهدئ (لمياء) من روعه، وتطلعه على دوره بالتفصيل.

*****

ودعت (لمياء) (العم قدري) بعد أن أطلعته على كل شيء، وعاد لحالة من الاستقرار في وضعه الجديد، واستعد لمتابعة (لمياء) لتنفيذ انتقامها بتحفّز شديد.

أما (هي)، فقد عادت لها حريتها. فكرت بشأن الهروب وترك كل شيء، لكنها بذلك قد خدعت (العم قدري)، وفي نفس الوقت سيتكرر خطؤه وقد يموت أبرياء؛ إذ لابد من المواجهة، مواجهة (مانيكان قدري) وجيشه الخشبي ذي العيون الزجاجية؛ وأدركت أيضا لماذا (هو) و(داليا) بالتحديد.. لم تشعر وتتوصل لأعماق نفسيتيهما؛ لاستحالة ذلك لأنهما دميتان بلا مشاعر، وهذا فسّر لها الكثير.

فأسرعت نحو (الفيلا) ووجدت الشباك الخلفي المطل على الترعة مفتوحًا كالعادة، فتسلّقته، ثم صعدت منه حتى الدور الثالث، لتبحث عن الحجرة الغريبة التي شاهدها (سعيد).

كان الوضع هادئًا جدًا ومخيفًا.

لم تفكر (لمياء) في خطة، لكنها بدأت في تفتيش الحجرة العلوية،

المضاءة هذه المرة، لعلها تجد أي خيط، فوجدت ملابس قديمة لإحدى الدميات، فلم تفكر وارتدتها كنوع من التنكر، ثم خرجت ونظرت إلى البهو من أعلى، لتجد مانيكانات ثابتة محلّها مخيفة لأناس عديدة، من ضمنهم (والدتها)، و(والدا سعيد)، و(خالد)، و(البواب)، و(ابن عم صفوت راقص التنورة)، و(آخرين)، خمنت أنهم من ضحايا (كارثة المولد).

ثم أطرقت سمعها لتستمع إلى صوت غريب وبعيد، خمّنت أنه بالقبو، فأدركت أن (الدمية قدري) تمارس طقوسها كالعادة، تربط نفسها بذلك الرباط المخملي بالعباءة من الخارج حتى تستطيع العودة.

بدأ عقل (لمياء) بالعمل بسرعة فائقة، تبحث عن خطة للتسلل عبر القبو، فهبطت درجات السلم للطابق الثاني، لتجد غرفة (داليا) المحترقة أمامها، فأغراها فضولها للدخول، لعلها تجد ما يساعدها.

دخلت الحجرة بحذر شديد، فوجدت جميع الدمى التي تشبه (داليا)، والتي استخدمتهم (دمية قدري)، محترقة ومكوّمة على بعضها كأنهم جثث محترقة لأطفال حقيقية، وقد زاد حجمهم؛ ثم مسحت بعينيها الغرفة بالكامل، فلم تر إلا أثاثًا محترقًا، فهمّت بالالتفات للخروج، عندما استمعت إلى ذلك الكرسي الهزاز في ركن الغرفة المظلم.

نظرت خلفها، فوجدته يهتز من تلقاء نفسه!

تسمّرت محلّها لا تدري ماذا تفعل!

ثم شعرت بحركة غير طبيعية أسفل السرير، وعاد الكرسي يهتز مرة أخرى!

ثم لاحظت اضطراب بكومة الدمى المحترقة، كأنهم يتحولون إلى غبار، وكأن شيئًا يسحبهم من وسط الغرفة ليبتلع الجميع، وفجأة فتحت الدمى أعينها جميعًا وصرخن بعنف.

كان مشهدا مرعبا (للمياء)، نبض قلبها بداخلها بسرعة رهيبة حتى كاد أن يتوقف، عندما قفزت من جانبها الدمية الشبيهة بـ(دمية نبيل)، والتي أعدتها (دمية قدري) لإثارة (سعيد) بشعرها الكثيف.

صرخت (لمياء) عندما استطاعت الدمية أن تتشبث برقبتها، لكن صراخها لم يظهر وسط صراخ البقية.

حاولت المقاومة، لكن مسكة (الدمية) لها كمن تخنقها بشدة. لم تكن (الدمية) تخنقها فقط؛ إذ كانت تدفعها نحو الهاوية التي فُتحت فجأة بوسط الغرفة لتسحب الدمى. حاولت بفشل الإفلات، لكنها استسلمت متحسسة (الدمية) التي تضحك بهيستيريا مريبة، وقد بدأت تسيطر عليها فأدركت نهايتها لتستسلم. وفجأة، وقعت يدها على الخيط المخملي الواصل بها! كان خيطًا غير مرئيّ، فشدّته ولفّت بها يديها وربطته بعقدة شلت حركة (الدمية) فتركتها، لتسعل بشدة وتحاول معاودة التنفّس مرة أخرى، ولازالت تضغط على الحبل كمن قطعت عن (الدمية) مصدر الحياة، لتشاهدها وهي تتلوى كمن يتلوى من الألم، وتجحظ عيناها الزجاجيتان وتخرجان من محجريهما!

فزعت (لمياء) من المشهد، لكنها ازدادت ضغطًا بقوة انتقامية على الخيط، وكأن (الدمية) بها عطب ما؛ إذ بدأت تتحرك حركات لاإرادية، تلتف رأسها في جميع الاتجاهات، تتساقط أصابعها وتنهار بالكامل؛ وكانت فرصة (لمياء)؛ إذ ركلتها بكل قوة رغم كبر حجمها نحو الهاوية، لتبتلعها بقوة. كادت (الدمية) أن تشد يدي (لمياء) نتيجة عقدها بالخيط الذي لم ينقطع، لكنها أسرعت بفكّه، لتشاهد (الدمية) وهي تنظر برعب ورأسها تتفكك، إلى أن اختفت واختفى صراخ الجميع، وعم صمت رهيب بالمكان مرة أخرى، تخللته أنفاس (لمياء) السريعة، وهي تتحسس رقبتها من الألم لتتمالك نفسها!

فجلست على الأرض، وهي تنظر لأسفل لتراقب البهو، حتى تهدأ حالتها وتعاود السيطرة على نفسها وتكمل خطّتها.

وفجأة خرجت (دمية قدري) من القبو، بعباءتها السوداء ذات الطلاسم السحرية، وذلك الخيط الغريب، ليأمر جميع الدمى ليصطفوا بانتظام ويبدؤون في نقل الجثث إلى القبو، ثم استمعت إلى صراخ عال جدا ومخيف من القبو، خمنت على إثره أن (قلب المكنون) يسترد الجميع عبر بابه مرة أخرى، فخطر على بالها أن الكل يتوجه إلى (سعيد)، وهيمنت عليها التساؤلات بشأن ما وراء (قلب المكنون)، تلك البقعة العمياء التي لم يكن مسموحًا لها برؤية ما بداخلها.

ثم قالت مشجّعة لنفسها وللقضاء على آخر ذرة من خوفها: "اللي يخليني اتجرأت ودخلت (تدوين المكنون)، هيخلّيني أدخل (قلبه)"

وبعد أن استجمعت قوّتها، وصمت المكان للمرة الثالثة، شاهدت (الدمية قدري) الوحيدة التي بدون عباءة تخرج بكل ثقة خارجة من القبو وهيِ تضحك بانتصار، فوقفت في مواجهتها وعيناها تقدحان غضبا.

فصاحت (الدمية قدري): "انتي مين!؟"

ضغطت (لمياء) على أسنانها من فرطِ الغضب: "أنا (بنت عُلا)"

(الدمية): "يعني!؟"

(لمياء) وهي خائفة، لكن قفزت منها بتلقائية هذه العبارة التهديدية: "موت (ماما) مش هيروح كده!"

ضحكت (الدمية) مستهزئة: "جاية تنتقمي بأة!"

لم تنتظر (لمياء) جملتها؛ إذ أسرعت عائدة إلى غرفة (داليا)، وتبعتها (الدمية قدري) وقد عادت لهيئتها الخشبية، واختفى جلدها الصناعي، واستحالت عيناها زجاجًا أحمر: "إنتي كتبتي نهايتك خلاص! اللي ييجي هنا مش هيخرج.. لازم يموت!"

*****

ظنت (لمياء) أن ارتدائها لملابس الدمية قد يُخفي ملامحها ويقيها من التعرف عليها، لكن تلك الفكرة كانت فاشلة فشلًا ذريعًا.

صرخت (الدمية قدري) صرخة دبت في قلبها الرعب.

فتعالت أنفاس (لمياء) من الرعب مخترقة طبلة أذنيها، فأغلقت باب الحجرة لتصبح حبيسة بداخلها، ثم أمسكت بالكرسي

الهزاز وجلست عليه تفكر كيف ستموت، مستسلمة فهي لا تدري ماذا تفعل!

لم يأخذ منها الوقت إلا القليل، و(الدمية قدري) تهشّم الباب وهي تصرخ صرخات مخيفة: "فاكرة الباب ده هينقذك مني!!؟"

ثم ركل الباب ليخلعه من مفاصله ويصبح في مواجهة (لمياء)، التي ظلت جالسة على الكُرسي تنتظر مصيرها، وهي تتابع بخوف رهيب حركة (الدمية) العملاقة نحوها، بينما تتحرك بثبات وبطء شديدين عن ثقة بانتظار فريستها للاصطياد.

أغمضت (لمياء) عينيها ليمر أمامها شريط حياتها، وهي تشعر باقتراب الدمية الشديد، ثم استمعت إلى انعدام ثبات الدمية وعدم انتظامه، فتحت عينيها لتشاهد (جدتها الشيخة فرح) وقد أطاحت برأس الدمية وهي تصيح في (لمياء): "اهربي يـ(لمياء)!"

لم تنتظر (لمياء)، وقد تأكدت أن (جدتها) ستظل بخير؛ إذ انطلقت تعدو على الفور في اتجاه القبو، لتقف أمام الباب الغامض وهو يُفتح أمامها.

ترددت للحظة إذ خطوتها القادمة قد تكون بلا رجعة، وهي الآن أمام فرصتها الأخيرة للتراجع، لكنها عزمت على فك اللغز وكشف الغموض والصمود حتى النهاية، وصولًا لـ(سعيد) إن كان حيا. وبدون انتظار للخيوط المخملية لتجذبها، اندفعت صارخة نحو الباب وهي تغمض عينيها، لتغوص في ظلامه

ويمتزج صراخها بصراخ وتأوهاتِ البقية بالداخل، ويُغلق الباب من خلفها، ويعود الصمت للمرّة الرابعة.

وتقف (جدتها) خارج القبو ممسكة برأس (الدمية قدري) وتقذفها وهي تقول: "مع السلامة يا (لمياء).. هدعيلك يا بنتي"

واختفت في غضون ثوان.

*****

أحس (العم قدري) بالراحة لما وصلت إليه الأمور، وأحسِ بالأمان لوجود روح صديقته العزيزة (الشيخة فرح)، متمنياَ لـ(لمياء) التوفيق في مسعاها، وقرارها الصعب الذي اتخذته بسبب الحب التلقائي النابع من أعماقها، مدركًا حدوده بشأن (قلب المكنون)، فقام ليكتب ويدوّن ما حدث عندما شعر بالتدفق داخله.

*****

(٩)

معركة الدوبامين!

نظرت (لمياء) حولها، لترى نفسها مُحاطة بتلال من الجثث الملتصقة ببعضها مكونة دهليزًا مضاء بلون أحمر دامي اللون، فلمحت بنظرها حتى نهاية الدهليز، وقد هُيأ لها أنه لانهائي!

ومما زادها رُعبًا أن تلك الجثث تنظر لها بعيونها وترمش أيضا، كأنها تلومها على الإقدام بالمجيء هنا، لكنها متحجرة ببعضها، تصدر عن أفمامها تأوهات وصرخات طويلة.

لم تبال (لمياء)؛ فقد عانت الفترة السابقة كفايتها، فانطلقت سائرة في طريقها باحثة عن (سعيد). فكّرت أن تنادي عليه، لكنها آثرت البحث في صمت مخافة أن توقظ شيئا ما.

لم يخطر ببالها أنها ستتعمق حتى النخاع في هذا الأمر لتدخل في (قلب المكنون)، المكان الذي حُرِم على (المدوّن) رؤيته حتى، لكن الفترة التي عانت فيها كـ(مدوّنة) بيّنت لها من كلام (الدمية قدري) أنه فقط من يدخل هنا لا يعود مرة أخرى، فأحسّت بشيء من الندم، وعلى النقيض بشيء من الأمل؛ فقد يكون كاذبًا، لعلها تجد طريقًا للخروج؛ فهي تعاني الآن من تضارب أفكار غير طبيعي!

تساءلت هل هو مكان لتعذيب النفوس؟؟ لكنها حتى الآن لم تشاهد نفسًا تُعذّب، كل ما أمامها هذا الممر السرمدي الضيق،

تسير فيه على غير هُدى في اتجاه واحد.

وهناك من بعيد شاهدت شخصًا يتألّم، يشبه في هيئته (سعيد)، يدس حقنًا في أنحاء جسده، ليفتح له باب غريب الشكل يشبه القفص الصدري.

حاولت اللحاق به، لكن الباب كان أسرع منها؛ لقد انغلق بقوة في وجهها، فنظرت حولها في حيرة، تأوهات وصرخات من وجوه حجرية وعيونهم تتابعها كظلّها، وعلى الباب شاهدت إبرا تخرج منه لتتشكل في هيئة حقن، خمس حقن مدرّجة ومتنوعة في الحجم، فتناولت إحداها، لتلاحظ تغيّرًا غريبًا بدأ بيديها لتتلوّن باللون الحجري، وأدركت بحواسها أن هذا اللون نابع من خمسة مواضع بجسدها، وكأنه يتحول تدريجيًا إلى شبيه بأجسام تلك الجثث الحجرية؛ إذ أخذ هذا اللون ينتشر ببقية جسدها ببطء شديد، وهي تشعر بالخناق يحيط بها، فتنفسّت بصعوبة بالغة، عندما أحسّت بسريان ذلك التحجّر بداخلها أيضا وأنه ليس ظاهريًا! لقد أدركت أنها ستُصبح إحدى مواد البناء لهذا الممر إذا لم تبحث عن حل ما!

ولكن واتتها الفكرة! لما لا تدُس الحقن الخمس في تلك المواضع الخمس التي نشأ منها التحجّر بجسدها، لعل الباب يفتح لها؛ أملًا في المرور عبره كما فعل الشخص الذي لمحته سابقًا. وبالفعل دَسّت الحقن بترتيب عشوائي بتلك المواضع وهي تتألم.. بلا فائدة! فجربت تبديل الأماكن وهي تتحمّل آلام الغَرز واحد تلو الأخر، حتى كادت أن تُصاب بالإحباط، وأحسّت بنهايتها قريبة، ونفسها يَخفْ ويقل.

وفجأة، اختفى اللون الحجري بجلدها، ليتحوّل للقرمزِي! لقد نجحت، وكأن السوائل التي تدفّقت من الحقن تلقائيا عندما غرزت كلًا منها بموضعها الصحيح بجسدها عالجته وجددت حيويّته. واستمعت لصوت صرير قوي، لينفرج الباب أمامها، وصوت الصرخات والتأوهات يعلو، كأنهم يريدون المرور مثلها، أو حزنا على ضياع فرصهم.

ثم استمعت إلى صوت نبضات قلب قوي ما وراء الباب، فلم تتردد. لقد زادها الأمر شجاعة للتوغّل، فدخلت وانغلق الباب خلفها، ليَخفي صوت توسلات الآخرين المُبهم، ويبقى صوت النبضات وصوت (سعيد)، الذي التفت خلفه ليتساءل بدهشة فور لرؤيتها: "لمياء!!؟"

(لمياء) وقلبها يخفق من الفرحة لرؤيته: "سعيد! الحمد لله!"

صرخ (الصوت الأجش): "سيبك منها يا (سعيد)! دي ناوية لك على شر! دي (حفيدة الشيخة فرح)! يعني هتنتقم منّك بسبب اللي حصل في المولد بتاع ستّها"

صرخت (لمياء) في (سعيد): "(سعيد)! ما تصدّقش أي كلمة من (نبيل)! أنا عرفت كل حاجة.. وأكيد حسّيت أد إيه أنا حبّيتك لمّا نبهتك.. أنا جاية عشانك، عشان أساعدك، حاول تنهي موضوع (نبيل) ده!"

(سعيد) وهو يتهته: "حبّتيني... موضوع (نبيل)! الوقت اتأخر أوي يا (لمياء).. كلّنا ضعنا خلاص هنا.. مفيش رجوع"

(لمياء) مُشجّعة وبثقة تحاول تنفيذ تعليمات (الطبيب) عندما أملاها على (والدتها) قبل قتلها، وكأنها تكمل رسالتها: "حاول.. دايما فيه أمل.. لو تعرف بسببك عانيت إزاي! حاول تصدقني أرجوك ما تضيعش اللي عملته عشانك"

(سعيد) وهو يحاول كبح جماح (نبيل) بداخله، فيغمض عينيه ويبتلع ريقه بصعوبة: "أنا نفسي! بس خلاص.. ده مصيرنا كلّنا.. هو فاكر إن فيه أمل زيّك، إنه يخرج من هنا"

(لمياء) وهي تمسك بيد (سعيد) لتشعره بدفئها: "سامع صوت القلب ده؟ هنكمل سوا يا (سعيد)، بس لازم (سعيد) بس اللي يكمل!"

(سعيد) وهو مُحبَطْ: "أخَلّص عليه إزاي؟ قوليلي"

(لمياء) وهي تشعر كأنما تتوافر بها الخبرة: "دي من جوّاك.. لما أقنعت نفسك إنه هلوسة من هلاوسك اختفى.. حاول تقنع نفسك إنك اتعالجت خلاص منه وهو هيختفي!"

صرخ (نبيل) من الأعماق: "يا غبي دي هتموّتك بعد ما تموتني! المكان هو اللي بيعمل فيك كده!"

صرخ سعيد وهو يتأوه على الأرض، يصارع جسده قائلًا لـ(لمياء): "مش بالسهولة دي!! مش بالسهولة دي!!"، وعلا تأوهه.

صرّحت (لمياء) له بسؤال: "فاكر (طنط علا)؟؟"

انتبه لها (سعيد)، وهو يجز على أسنانه: "فاكرها"

صدمته (لمياء): "دي كانت ماما!"

تذكر (سعيد) ذلك القلب الحنون في شريط من الذكريات، وكيف كانت تصارع الجميع مِن أجله، كأنه الطفل الذي لم تلده، ونيتها في كفالته عندما صرحت بذلك له.

أكملت (لمياء) مشجّعة بقوة: "كنا زمانا هنبقى اخوات يا (سعيد).. مكانش (نبيل) ولا غيره هيقرّبلك.. لازم نتّحد يا (سعيد)! خلي (نبيل) ده آخر حاجة تخوّفك.. ميقدرش يعمل حاجة.. انت اللّي جبته وانت اللي هتمشّيه!"

صرخ (نبيل) وقد شعر بتلاشيه شيئا فشيئا: "لا يا (سعيد)!! اللي واقفة قدّامك دي مش حقيقية! انت عارف كده!"

أحسّت (لمياء) بأن لما حولها رأيًا آخر، كأنهم يريدون أن يبقوا من حال (سعيد) وألا يتماثل للشفاء، يريدونه جليسًا للشر، فازدادت عنف النبضات واهتزت الأرض الحجرية بهما، وتعالت الصرخات بالخارج من الخوف، فأحسّت بالخوف، لكنها تأكدت أنها على الطريق الصحيح، وأن هذا المكان ينوي الشر لهما طالما بقى الحال كما هو، فصرخت في (سعيد): "انت صح يا (سعيد).. انت خلاص بتعالج نفسك"

نظر (سعيد) أمامه، فشاهد (دمية نبيل) كأنها تتشكل أمامه. للحظة أحس بالحنين لها، لكن صراخ (لمياء) وتشجيعها فوّقه من غيبوبة الهلاوس، وفكر للحظة في سؤال أقنعه بالعلاج:

"لحد امتى هعلّق أفعالي على شماعة الوهم والهلاوس!؟؟ على إرادة (نبيل)!؟؟"

تحدثت (الدمية نبيل) بصوته الذي تحول لصراخ: "أنا حقيقي يا (سعيد)! إحنا أعز صحاب! فاكر تاريخنا سوا!؟"

لم يرد (سعيد) على حديثه؛ إذ هُيَئ له بأنه يدفع بـ(الدمية نبيل) بتلقائية، والتي زاد حجمها، ليلقي بها في حوض دموي عميق، لتعجز عن الحركة وتصرخ بغضب: "لااااا! مش بالسهولة دي!! هرجعلك يا (سعيد)، وساعتها مش هدّيك الفرصة!!"، ثم عجزت عن النطق بكلمة أخرى، واستحالت فقاعات ضخمة بداخل الحوض، والذي بدا أنه يغلي، وسخونته تلفح جسديهما.

أما (سعيد)، فقد شعر بالحرارة وبألم رهيب ينتابه، فسقط على الأرض، لتتلقفه (لمياء)، التي شعرت أيضا بالسخونة وهو يتمتم لها: "شُكراَ"

ابتسمت (لمياء) وقد أحسّت بعودة الأمل في (سعيد)، لكنه فقد الإحساس، وأغمض عينيه، وشعر أنه يسبح في بحر من الآلام، تعاوده تلك الكوابيس المخيفة، يتشنج بعنف مريب.

ثم بدأ المكان ينهار من حولهما، ونبضات القلب تزداد عُلّوا، و(لمياء) لا تدري الخطوة التالية، ثم بدأ يساورها ألم دماغي رهيب هي الأخرى، وهي تصارعه وتحاول تفويق (سعيد)، مخافة أن ينتكس مرة أخرى وتصبح حالته أسوأ وأشد، فصرخت في أذنه: "(سعيد) اصحى! لازم نكمّل!"

حاول (سعيد) جاهدا الخلاص من كوابيسه التي أنهكته، والتي أتاحت سابقًا لـ(نبيل) السيطرة عليه، لكنه تتبع نداء وصراخ (لمياء) عازمًا كل العزم على ألا يتيح فرصة لعودة ما يسمى بـ(نبيل)، سواء مجسّدًا أمامه أو بداخله، فحاول النهوض.

لكن (لمياء) أحسّت بوخزة خفيفة بقلبها، فنادت على (سعيد) للمرة الأخيرة، الذي يجاهد للوقوف وهو يهز برأسه بسرعة ليفيق مُغمضًا عينيه، وينحني مستندا على (لمياء). وبدأ (الاثنان) يشقّان طريقًا مخيفًا عن ذي قبل، نحو مصدر نبضات القلب! وكلما تقدما أحسّا بالوهن الشديد وبوخزات قوية في أماكن عديدة بأجسادهما، ونبضات القلب في تسارع وازدياد، حتى كادت تطيح بهما من فوق الأرض. بدأ كل شيء ينهار من حولهما، وبدأت (لمياء) تبكي وهي تجذب بـ(سعيد) وتئن من التعب، و(سعيد) يزداد ضعفًا لا يدري لماذا! حتى وصلا إلى مصدر نبضات القلب، فوجدا شيئا صدم (سعيد)، وتبسمت (لمياء) له ارتياحًا.

لقد وجد نفسه مسجى على سرير من الحديد، مربوطًا بأنابيب عدة، وموصلًا بجهاز تنفس صناعي. وما زاده رُعبا تلك الحقنة الكبيرة المغروسة في قلبه، ويبدو أنها مُوصلة بجهاز يقيس الوقت، وهي تدس سائلها في قلبه بمعدل بطيء جدًا؛ وكلما ضخت، شعر بوخزة في قلبه.

لم يفهم (سعيد) شيئا.

نظر حوله باحثا عن (لمياء)، فلم يجدها!

وكأن الكادر توقف لحظة بسعيد وجسده المسجى، يتعالى صوت نبضات قلبه وتتسارع، ويتصبب عرقًا، ليشاهد آخر جرعة يتم ضخها بواسطة الجهاز المثبت على الحقنة، ليتلاشى كل شيء من حوله، ويصبح ما حوله فراغًا!! وهنا أحس (سعيد) بالضياع والتشتت!

وفجأة، فتح جسده الملقى عينيه ليفيق! لقد عاد لأرض الواقع، وتذكر ما أقدم عليه منذ البداية.

(زيارة عالم يشبه عالمنا متطوّعًا؛ لمواجهة مرضه الفصامي في شكل هلاوس مجسدة أمامه، ومعيار الانتصار هو السيطرة عليها، تقابله المخاوف، تحركه غريزة الفضول حتى كادت أن تفتك به، مر الوقت عليه كالسنين. كان يريد أن يتوصل إلى حقيقة الأمر بتلك المخاطرة الرهيبة، حقيقة مرضه لمواجهته. أراد إنقاذ ما يمكن إنقاذه من براثنه)

وبمساعدة تلك (التقنية الغريبة) التي تشبه الحقنة، مدسوسة عبر قلبه النافر، ليتدفّق منها سائل غريب؛ ولكن الطريق ليس باليسير؛ إذ مر الوقت عليه كالمجنون حتى كاد أن يفتك به (المكنون).

ذلك بمساعدة خبير بطرق العلاج الغريبة هذه، والتي نجحت فعلا في القضاء على فصامه المركب.

*****

فتح (سعيد) عينيه وهما تدمعان.

أسرع (الخبير) إلى (سعيد) ليتفحّصه، مشيراَ (للممرضة) لفك وثاقه قائلا: "حمد لله على السلامة"

نهض (سعيد) لينظر إلى الممرضة التي تفك الأربطة عنه، بجسدها الممشوق، ليذكّره بـ(هدايا)، متعجباَ من تأثير الحقنة كمن عاش عالما حقيقياَ مخيفًا.

نظرت الممرضة له متفحصة نبضه بابتسامة خفيفة: "إيه الأخبار؟؟"

تسارعت نبضات قلب (سعيد) كأن الأمور تختلط به. شعر بدوار رهيب بدأ في الزوال تدريجياَ، وشعر بآلام مبرحة تحمّله على البكاء من شدتها، لكنه آثر على كبت البكاء.

تعجب (الخبير) من ملامح (سعيد) المريبة كمن فقد التخاطب، فكرر سؤاله: "(سعيد) انت كويس؟؟"

نظر (سعيد) إليه، ثم أومأ له بنعم، ليتنهد (الثاني) ارتياحاَ.

ثم نظر (سعيد) بكل برود لهما بالتناوب قائلا: "أنا اللي قتلتهم!!"

ابتعد (الخبير) وكذلك (الممرضة) للوراء لمجرد سماع تلك العبارة، والتي بدت كأنها صريحة وصادقة!

فصرخ (الخبير) في صدمة: "انت بتقول إيه!!؟؟"

ارتعدت (الممرضة) وأمسكت بذراع (الخبير).

رد (سعيد) وهو يدْمع: "زي ما قُلتلك كده.. أنا قاتل! (نبيل) حوّلني لقاتل!"

قال (الخبير) بأسى مستشعراَ فشل التجربة: "الحقنة أثّرت عليك! ما حلّتش حاجة للأسف"

أومأت (الممرضة) لتؤيد قول (الخبير)، ويزداد تشبثها به خوفًا من أي تصرف طائش ينتج عن (سعيد)، والذي صاح منفعلًا وهو يتذكر: "بالعكس يا (دكتور)، دي عالجتني من المرض اللي خلاني أقتلهم.. خلّتني أواجهه، ولو مكانتش عالجتني كان زماني فايق و..."، ثم صمت ولم يكمل عبارته.

ارتعدت (الممرضة) أكثر، وهي تنكمش خلف (الخبير)، الذي هدأ من روعها مطمْئنًا، متسائلًا بتلقائية: "يعني إيه يا (سعيد) الجهاز نجح؟؟"

لم يبال (سعيد) بسؤال (الخبير)؛ إذ رفع حاجبيه كمن أتته فكرة: "هطلب منك طلب يا (دكتور)"، ثم سكت مبتلعًا ريقه، وليهدأ تنفسّه شيئا فشيئا ليكمل: "أنا هصلّح كل غلط على قد ما أقدر.. حتى لو فيها موتي.. أنا من حقي فرصة تانية، وهمّا من حقهم يعيشوا"

برقت عينا (الخبير) لقد فهم الأمر وهو يتساءل باحباط: "تقصد إيه فرصة تانية على الجهاز!"

سرح (سعيد) إلى الجهاز وهو يومئ، ثم تحدث بانفعال غير عادي: "بس فرصة تانية من غير (نبيل).. الحقنة دي بتودّيك

عالم اسمه (المكنون).. عالم تاني له نظام تاني وقوانين تانية وبيفرض عليك شخصيات مش بمزاجك لمجرد إنك دخلت فيه، وبيكشفلك حقيقتك وبيخليك تواجهها.. يعني ترجع أو مترجعش، كويس أو مش كويس، زي مانت أو غير الأول"

صمت، ثم تحدث بهدوء متسائلا: "هو أنا مر عليّا وقت قد إيه؟؟"

ردت (الممرضة) بصوت مبحوح: "حوالي أسبوع!" ثم أكملت: "أنا حاسة كأنّي في فيلم!"

رد عليها (سعيد) مستنكرا: "بس دي حقيقة.. زي ما بكلمكم... مكانش حلم"، ونظر للممرضة وأردف مؤكدًا: "ولا كان فيلم"

ثم زاغ ببصره بينهما: "لو قلتلكم إني هناك عشت من سن الطفولة لغاية سن التلاتينات هتصدقوني؟؟"

(الممرضة) وهي تنظر له باندهاش: "إيه!؟ كل ده في أسبوع!؟"

تحسس (سعيد) بطنه: "أنا جعان"

على الفور أمر (الخبير) (الممرضة) بإحضار وجبة من الثلاجة، ثم نظر لـ(سعيد): "احكيلي.. شفت إيه هناك؟؟"

*****

بعدما سرد سعيد كل تفصيلة وبدقة عالية، كمن عاد للتو من تجربة مؤثّرة، أطرق (الخبير) برأسه: "(سعيد).. المادة اللي في الحقنة دي اسمها (الدوبامين)*.. لازم تكون مريض عشان

ترجع.. يعني ممكن تسببلك انتكاسة.. وأنا لمّا صدّقت إنك خلاص اتعالجت وحصل توازن للمادة دي جوّاك، قلت دي معجزة. انت عارف مرضك ده محتاج كذا نوع علاج: اجتماعي (أسري يعني) - أدوية - متابعة – وغيره، ولازم في وقت واحد"

(الدوبامين: DOPAMINE)
مادة كيميائية طبيعية تفرزها الدماغ من الداخل، تتفاعل داخلها لتؤثر على استشعارات الإحساس والسلوك والتركيز والحركة وغيرهم عند حدوث خللا ما في افرازها نتيجة خلل بخلايا الدماغ التي تفرزها سواء قّلت أم زادت قد تصبح إحدى الأسباب أو العوامل الكيميائية للإصابة بمرض الفصام (الشيزوفرينيا) وهو ما يفسر أنه مرض عقلي يصيب المخ.
ومريض الفصام يتأثر بانخفاضها أو بارتفاعها على حسب، مما تسبب له أعراض الهوس عندما يتعاطاها كعقار علاجي.

" الحقنة اختارتلك طريق صعب جدًا عشان تعالج نفسك، وانت انتصرت فيه بس في أسبوع... ده سبق تكنولوجي"

صمت (سعيد) للحظة مُحبطًا، ليتذكر (هدايا) التي عشقها، و(لمياء طيبة القلب) التي أنقذته مضحية بنفسها واختفت في ظروف غامضة من جانبه، وقد أحس بهما كأشخاص حقيقية وليس هلاوس له.. شخصيات ناتجة من اختلاط النفوس بـ(المكنون)؛ فشعر بتجدد الأمل، وعاد يضرب بداخله ثم قال: "اللي يحصل يحصل يا (دكتور).. اللي يخليني أكسب المرض مرة هيخليني أكسب تاني"

صاح (الخبير): مستحيل يا (سعيد) بعد الإنجاز ده أخليك تنتكس تاني! إحنا بنتقدم مش بنتأخر! دي مسئوليتي يا سعـ....."

لم ينتظر (سعيد) بقية الحديث؛ إذ عقد قراره واثبًا فجأة على (الممرضة)، ليلتقطها محيطًا بها بذراعه، ضاغطا على رقبتها، ليرمي عبارة تهديدية بصوت أجش: "ومين قالك يا (دكتور) إننا بنتقدم!!؟ بقولك رجعني تاني!"

صرخت (الممرضة) رُعبًا... من ذلك الصوت الأجش!

أما (الخبير) فانتفض متخذا وضعًا كي يحتمي بنفسه: "خلاص يا (سعيد).. سيبها وأنا هنفّذ طلباتك!"

أشار (سعيد) إلى الحقنة قائلًا: "رجّعني تاني! إن كنت خربت الأمور هناك فلازم أصلّحها تاني"

كمحاولة إقناع قال (الخبير): "طب اهدا عشان نتفاهم بس.. لو صلّحت الأمور هناك، ده برضه عالم مش موجود"

ذرفت عينا (سعيد) الدموع، وهو يضيق الخناق على رقبة (الممرضة): "لسة متعرفش يا (دكتور).. أنا شايف الحيرة على عينيك.. انت لسة متعرفش"

ثم شد شعر (الممرضة) وأكمل: "كنت حاسس بيهم، زي ما حاسس بيكم دلوقتي!"

ثم أمسك بالحقنة وحررها من جهاز الضخ والمؤقت، ليلقيها إلى

(الخبير) آمرا: "املاها!"

وغرس أصابعه بقوة وبلا رحمة في رقبة (الممرضة)، التي صرخت بقوة وشحب لونها، وأحست بهبوط رهيب نتيجة الاختناق، أفقدها الوعي بين يديه.

على الفور أسرع (الخبير) إلى زجاجة بداخل ثلاجة متوسطة الحجم، يبدو أنها مُعقمة جيدًا، ليَخرجها وسط البخار المكثف كزجاجة المياه الغازية، ودس الحقنة الضخمة بغطائها الجلدي، ليسحب كمية من (مستحضر مادة الدوبامين)، ثم بنظرة غضب ألقاها لـ(سعيد)، ليتلقفها ويحرر (الممرضة) من قبضته لتسقط على الأرض، ثم أشار للـ(خبير) بالخروج، والأخير يتمنى لو كان فريقه بصحبته ليستطيع السيطرة على (سعيد)، لكنه الآن وحيدًا. وبدأ يتراجع للخلف صائحًا بـ(سعيد): "انت هتعمل إيه يا مجنون!!؟ هتركّب الجهاز إزاي!!؟ ده ممكن يموّتك.. المادة اللي جوة دي ممكن تموتك على قد ما بتعالجك!"

"(الدوبامين) دي ممكن تزود الهلاوس عليك لو كميتها زادت عن حدّها!!"

صاح (سعيد) معترضًا: "مكانتش هلاوس.. قلتلك مكانتش هلاوس.. الهلاوس خلاص أنا اتعالجت منها.. أنا لازم أرجع"

ثم صرخ فيه بالخروج، غير عابئ بتحذيرات (الخبير).

ثم قام بتركيب الحقنة في الجهاز، يضغط على الأزرار لتشغيل الجهاز، ليشاهد الحقنة وهي تقترب من موضع قلبه ببطء

شديد، مكّن له ربط نفسه تاركًا إحدى يديه حرة فدسّها أسفل جسده لتثبيتها، واستعد لاقتراب الحقنة من موضع قلبه.

بينما يتابعه (الخبير) بتوتر شديد من خلف لوح زجاجي بحجرة المتابعة يفصله عن (سعيد)، ثم قال له عبر الميكروفون كمحاولة أخيرة: "مش خايف نقتلك وانت متوصّل!؟"

ضحك (سعيد) بسخرية: "أنا متأكد إنك هتستناني.. وأنا هثبتلك إن كلامك فيه غلط، وكلامي أنا اللي صح.. أنا اللي عايشت العالم ده"

لمح سعيد الحقنة محفوراً عليها طلاسم غريبة تشبه المرسومة على عباءة (الدمية قدري) في المكنون، فتيقن أنه سيعود مرة أخرى للـ(مكنون)، وسيبحث عن السعادة بعدما شُفي من خلله النفسي.

ثم سأل (الخبير): "انت جبت الحقنة دي منين!؟؟"

(الخبير) وهو يبتسم بخبث: "..........."

صرخ (سعيد) وقد أحس بغاز ينطلق ليخدره: "انطق!!"

لم ينطق (الخبير) إذ وقف يتابع، مدركًا أنه لن يبوح بسرّه لأحد مهما كان. لكن فضوله يسيطر عليه؛ يريد أن يعرف ما سيمر به (سعيد) مرة أخرى، فقرر الانتظار لأسبوع آخر.

عجز (سعيد) عن التحدث والصراخ، وقد ثقلت شفتاه، فأغمض عينيه بعد أن ألقى نظرة أخيرة على (الممرضة) المغشي عليها

متذكّرا بها (هدايا)، فابتسم مستعدًا لملاقاتها. ورغم تأثير المخدر، بدأت تتسارع نبضات قلبه، لينفر مركزه لمقابلة سن الإبرة المدبب الذي يقترب رويدًا رويدًا. كشّر بعينيه عندما شعر بألم خفيف كالخدل نتيجة الوخزة، يزداد كلما انغرست الإبرة، ثم مرت بصدره متعمقة حتى متوسط قلبه من الداخل، فتشنّج بعنف، بينما تدفق (سائل الدوبامين) الشفاف بداخله، وقد ظن لونه تعكّر للأسود بتأثير الحقنة أثناء تركيبها، ثم أحس بهبوط حاد وتنميل في أطرافه، وأغمض عينيه، لتسود الدنيا من حوله، ويسير بخطاه نحو (المكنون) مرة أخرى.. نحو فرصة أخري... لتصحيح أوضاعه.

*****

فتح (الخبير) دفترا، وتناول قلمه من جيبه وكتب بصفحة بيضاء به: "لابد من تعزيز حراسة مشددة على (سعيد) لاحتمالات انتكاسته بشدة.. قد يقتلنا جميعًا بعد الإفاقة، وقد لا يعود مرة أخري!"

وبجانب خانة التوقيع همّ بكتابة اسمه، فسقط منه القلم عندما ضربته حالة دوار شديدة، جحظت خلالها عيناه وتشنّج بسببها في جزء من الثانية، سرعان ما هدأ منها، ثم اعتدل مبتسمًا مهندمًا ملابسه، ملتقطًا القلم ليوقّع: "(د/نبيل)"

ثم لمح (الممرضة) بالداخل وهي تفيق مستنجدة به: "دكتور (فوّاز) الحقني!"

فاتجه دالفًا إلى الحجرة نحوها، متناولًا مشرطًا وهو يبتسم لها

بصوت أجش، ناظرًا إلى (سعيد) باستهزاءٍ: "اللي موجود دلوقت عشان ينقذك هو دكتور (نبيل)، تحبي؟"، ثم ضاقت عيناه وتحركتا ببطء نحوها، ليشاهدها وهي تدرك أن هنالك خلل ما أصاب الدكتور (فواز) الخبير، فترتعد بقوّة، قبل أن تلمح رقبتها وهي تُنحر، ودماؤها تتناثر على اللوح الزجاجي الشفاف، ليتلوّن بها بالكامل، وتستحيل الرؤية من خلاله.

*****

(١٠)

سعيد

استيقظ (سعيد) في شقته مرة أخرى، على دراية تامة بتمام شفائه.

لا يوجد (نبيل)، لا توجد (سيارة حمراء)، لا توجد فروة رأس وشارب غريبان وغير مهذبين، فالتقط أنفاسه من الانفعال. لأول مرة يستيقظ على نومة هادئة بعكس المرات السابقة، التي يندمج فيها بكوابيس ليس لها ميعاد لتطرق على باب عقله ووعيه، لكنه كالعادة لا يتذكر طفولته.

فقط يتذكر (هدايا) و(لمياء) هذه المرة، فأسرع كأول خطوة مهرولًا كعادته حتى كاد أن يتعثر، في اتجاه النافذة ليفتحها وينظر عبرها، ويبتسم نحو الملاك الذي أحبه، نحو (هدايا) التي تقف له بملابس مثيرة جديدة لم يرها عليها من قبل.

تنفس الصعداء قائلا لنفسه بفرحة عارمة: "ياااااااه! (هدايا)!"

وكأن (هدايا) قرأت شفتيه تنطقان اسمها، أرادت أن تعطّرهما، فأطلقت قبلة في الهواء له مشيرة له بالقدوم.

فضحك (سعيد) بدوره وأومأ لها؛ فلا يوجد من يمنعه الآن أو من يغير عليه ولا منها، فانطلق يقفز السلالم حتى الشارع، ليشاهد (البواب مِخلف)، فألقى التحية عليه بسعادة، فبادله (الثاني) بالتحية متعجباَ من تصرفه.

أما (هدايا)، فيبدو أنها سعيدة من قلبها، فقامت بإغلاق النافذة، قبل أن تتابعٍ صوت خطوات (الرهوان) الذي يصعد درجات بيتها مهندمًا ملابسه؛ مستعدة له، تقف أمام باب شقتها وعيناها تتماسكان لتصبحان ذواتي هيئة زجاجية، ويختفي التقعر منهما، ويتخشّب وجهها ليتشقق، وهي تبتسم بفم مفتوح حتى أذنيها في انتظار دخول الضحية.

*****

لكن ابتسامتها توقفت، عندما استمعت إلى صوت رقيق غير مألوف لها بالخارج ينادي بلهفة: "سعيد!"

توقف (سعيد) فجأة قبل أن يمد يده إلى الباب، متعجّبًا: "(لمياء)!! بتعملي إيه هنا!!؟"

(تمت بحمد الله)

خاتمة

وبعد تلك الرحلة الغريبة، نخلص في النهاية إلى قوله تعالي:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

"ونفس وما سوّاها* فألهمها فجورها وتقواها* قد أفلح من زكّاها* وقد خاب من دسّاها*"

صدق الله العظيم

(سورة الشمس آية ٧ – ١٠)

فالنفس البشرية يقودها الشيطان ببراعة، فتستمد وقودها من توفير المبررات الواهية، لكنها في الحقيقة خدّاعة بطبعها، في عراك دائم مع صاحبها؛ فقد تُوهمه بأنه يسير نحو الطريق الصحيح لمجرد أنها تُخبِئ له الأسوأ بجنبات هذا الطريق وقد وضعت له المصائد؛ فمَهْمَا حاول الشخص الخلاص من الأفكار السوداوية بداخله، ستتكون المبررات لسواد آخر دون دراية منه، ومهما شُفي من وعكته النفسية التي أضعفته من الداخل، ستُنشئ له النفس ما يربطه بها دون درايته، بخدعة أنه قد اجتاز هذا الاضطراب ولن يعود له أبدًا.

والشخص المؤمن القويم هو المُسيطر عليها لا العكس؛ وذلك بنقاء قلبه وفكره، وبالتالي صلاح نفسه. يدرك دوماً بتلك المعركة، وفي استعداد تام لها.

*****

ونهايةً: أنوّه لزيارة (صفحتي الرسمية): "أيمن العايدي"

على موقعي (الفيس بوك) و(الجود ريدز):

- www.Facebook.com/Oumecature
- www.Goodreads.com/author/show/١٣٤٧٥٩٤١

وفي انتظار تقييمكم للرواية ولرواياتي السابقة:

١- الجمال المدفون.

٢- الباروكازا (النفق الأسود).

مع الشكر الجزيل..

أيمن العايدي